الباب الثاني

التحول من ماضي الأمة الإسلامية المجيد إلى حاضرها الأليم

الفصل الأول : العوامل الداخلية

الفصل الثاني : العوامل الخارجية

الفصل الثالث : نتائج التحديات الداخلية والخارجية

التحول من ماضي الأمة الإسلامية المجيد إلى حاضرها الأليم

غير الإسلام مجرى التاريخ كله. وقطع مابين الحضارات الوثنية مثل حضارة الفراعنة ، والرومان ، والفرس ، والهنود الوثنية ، وربط بين الحنيفية الابراهيمية ورسالة محمد ﷺ ، بعد أن كانت تلك الحضارات الوثنية قد طغت على الحنيفية الابراهيمية ، فأعاد الإسلام السلسلة ـ سلسلة النبوات وأوجد حضارة متصلة برسالات السماء ، من لدن آدم عليه السلام ، إلى محمد ﷺ ، فكان كما قال ﷺ : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كرجل بنى بيتا فجمله وحسنه ، إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه ، فكان الناس يطوفون بالبيت ، ويعجبون ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم المرسلين »(١).

فكان العصر الوسيط ، والنهضة الأوربية ثمرتين من ثمار الإسلام. فكان من الطبيعي والحالة هذه أن يواجه الإسلام التحديات العاتية من أول ظهوره ، التحديات الوثنية ، واليهودية والنصرانية ، والمجوسية ، وأن تتعرض أمة الإسلام إلى كثير من التحديات الداخلية والخارجية أثناء مسيرة الإسلام ، وأثبت الإسلام قدرته على البقاء والاستمرار ، والتمدد ، فما دخل في أرض وخرج منها ، وما استطاعت الأزمات أن تقضي عليه ، أو تجعله ينهار ، وظل محتفظا بذاتيته الخاصة الواضحة ، عن غيره من النحل ، والأديان(٢).

نعم واجه الإسلام منذ ظهوره في مكة إلى أن قامت دولته في المدينة التحديات : تحدي وثنية قريش ، وتحدي أهل الكتاب من اليهود ، والنصارى ، داخل شبه الجزيرة ، وخارجها، وتغلب على هذه التحديات ، وامتد شرقا وغربا في عهد الخلفاء الراشدين ، وتعرض إلى محن داخلية إذ تمكن عبد الله بن سبأ اليهودي ومن هم على شاكلته من بذر التناقضات بين المسلمين ، ووسعوا هذه التناقضات ، فأدى ذلك إلى امتشاق الحسام ، واستمرت الأحداث زمن الأسرة الأموية ، واشتد التحدي من الداخل ، بين الإسلام وبين من تظاهر بالإسلام ، من أهل الكتاب ، ومن الفرس ، والمجوس. وكانت الأمة من الوعي على دينها ، ومن القوة في إيمانها ، والتمسك بعقيدتها ، بحيث فوتت على أصحاب الشر والفساد أهدافهم ، فسار الإسلام رغم ماأصاب المسلمين من جراح قدما ، إلى أن بدأت

(١) صحيح البخاري ج٣ ص ٣٠٠ كتاب المناقب. باب خاتم النبيين ﷺ/مسلم ج٤ ص ١٧٩٠. كتاب الفضائل. باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين.

(٢) التحديات ص ١٠١. أنور وجدي.

عقيدتهم تضعف ، وبدأ الزيغ يدخل نفوسهم ، فأصابهم التغير ، فقادهم إلى الضعف ـ مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ماباًنفسهم ﴾(٣). فكانت العوامل الداخلية أهم من العوامل الخارجية التي أثرت على نقل العالم الإسلامي من ماضيه المجيد إلى حاضره الأليم. فحينما كانت الأمة خاضعة خضوعا تاما لسلطان الإسلام ، حكمها ينبثق عن قانونه ، ومجتمعها يقوم على نظامه ، وأخلاقها مستلهمة من روحه ، عزت وتوحدت وأصابها الغنى ، وحينما أخذت هذه الأمة في الغربة عن الإسلام أصابها الفرقة والضعف والتخلف ، وسنتناول فيما يلي العوامل الداخلية ثم الخارجية ، تلك التي أسهمت في نقل المسلمين من ماضيهم المجيد إلى حاضرهم الأليم ونتائج ذلك في ثلاثة فصول :

---

(٣) سورة الرعد الآية ١١.

الفصل الأول

العوامل الداخلية

١ـ انشقاق المسلمين إلى فرق : فقد نجحت القوى الحاقدة على الإسلام ، المتسللة في صفوف المسلمين ، في شق المسلمين وصدعهم. فظهرت فرق الخوارج وفرق الشيعة وقد ناهضت كل منهما أهل السنة والجماعة ، فعمل ذلك على تبديد طاقة المسلمين المادية والعسكرية والفكرية بتوجيهها إلى داخلهم في صراعات دامية. كما ظهرت فرق أخرى كالمرجئة والجهمية ، والمعتزلة ، وغيرها ، أقلقت بال المسلمين وشغلتهم.

٢ـاشتغال المسلمين بالفلسفة وعلم الكلام : اشتغل بعض المسلمين في العصر العباسي الأول(١٣٢ ـ ٢٣٢هـ) بترجمة العلوم اليونانية ، والهندية ، إلى اللغة العربية. ثم انحرف هذا الاتجاه إلى ترجمة الفلسفة الإلهية الاغريقية ، فدخلت الحياة الفكرية في العالم الإسلامي(٤).

فانشغلوا بما لاينفعهم في دنيا أو آخرة ، وبأمور جانبية ، وكان ابن المقفع ، وحنين بن اسحق ، وثابت بن قرة ، وأضرابهم من الذين حملوا لواء هذا العمل قد استهدفوا غاية خطيرة هي نقل مذاهبهم وأديانهم إلى الفكر الإسلامي ، وكان القسم الأكبر من هؤلاء النقلة من السريان ، والأقل من اليهود ، فنقلوا مانقلوه وفق أهواء خاصة ، وأكثرهم لم تكن غايته البحث عن الحقيقة ، بل كان همهم الدعوة إلى شيعتهم ، وتزيين أهوائهم الدينية ، وإدخال ما ليس في الإسلام فيه. لذلك كانوا يغيرون ويبدلون في النصوص التي بين أيديهم خدمة لأغراضهم. وظهر علم الكلام متسلحا بالمنطق الذي كان الوسيلة لتنمية القدرات العقلية للفيلسوف حتى يتأهل للتلقي عن العقل الفعال.

وقد ذم بعض الفقهاء الكلام وأهله ، قال أبو يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة وصاحبه : « من طلب الدين بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب غريب الحديث كذب »(٥).

---

(٤) أرسل المأمون إلى حاكم صقلية النصراني يطلب منه أن يبادر بإرسال مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتب الفلسفة ، وتردد في إرسالها واستشار رجال دولته فأشار عليه المطران الأكبر بقوله : « أرسلها ، إليه فوالله مادخلت هذه العلوم في أمة إلا أفسدتها ».

(٥) شرح الطحاوية ص ٧٢.

وقال الإمام الشافعي : « حكمي في أهل الكلام أن يطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويضربوا بالجريد ، والنعال ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب ، والسنة ، وأقبل على علم الكلام ، وقد أطلعت من أهل الكلام على شيء مما ظننت مسلما بقوله ، ولأن يبتلى العبد بكل مانهي عنه ، ماخلا الشرك بالله ، خير له من أن يبتلى بالكلام »(٦). وقال الإمام مالك : « أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل ، تركنا ماجاء به جبريل إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، لجدل هؤلاء ؟ »(٧).

قال ابن الحصار : « إنما ظهر التلفظ بها زمن المأمون بعد المائتين لما ترجمت كتب الأوائل وظهر فيها اختلافهم في قدم العالم وحدوثه ، واختلافهم في الجوهر وثبوته ، والعرض وماهيته ، فسارع المبتدعون ، ومن في قلبه زيغ ، إلى حفظ الاصطلاحات ، وقصدوا بها الإغراب على أهل السنة ، وإدخال الشبه على الضعفاء من أهل الملة ، فلم يزل الأمر كذلك إلى أن ظهرت البدعة ، وصار للمبتدعة شيعة ، والتبس الأمر على السلطان ، حتى قال الأمير (المأمون) بخلق القرآن ، وجبر الناس عليه وضرب أحمد بن حنبل على ذلك ، فانتدب رجال من أهل السنة ... فخاضوا مع المبتدعة في اصطلاحاتهم ثم قاتلوهم وقتلوهم بسلاحهم »(٨).

وفي القرن الرابع الهجري اتخذت الفلسفة طابع التحدي لعقيدة الإسلام ، على يد ابن سينا (**٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ**) ، الذي يعتبر من أخطر فلاسفة المسلمين.

وقد نعته الذهبي بأنه :« رأس الفلاسفة الإسلاميين ، الذين مشوا خلف العقول ، وخالفوا الرسول »(٩) وتاب في آخر أيامه(١٠). وقد روى عنه تلميذه ابن أبي أصيبعة : « أنه يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم ، وكنت أقرأ من الشفاء ، وكان يقريء غيري من القانون نوبة ، فإذا فرغنا حضر المغنون على اختلاف

---

(٦) نفسه ص ٢٢٩ ، ص ٧٢/سير أعلام النبلاء ج١٠ ص ٢٩.

(٧) حلية الأولياء ج٦ ص ٣٢٤، سير أعلام النبلاء ج٩ ص ٩٩.

(٨) القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ تفسير الآية رقم ١٧٠ من سورة البقرة ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا ﴾. ج٢ ص ٢١٣ـ٢١٤ طبعة بالأوفست. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

(٩) انظر سير أعلام النبلاء ج١٧ ص ٥٣٥.

(١٠) انظر ابن خلكان. وفيات الأعيان ج٢ ص ١٦.

طبقاتهم ، وهيء مجلس الشراب بآلاته ، وكنا نشتغل به »(١١).

وكان والده قد استجاب للاسماعيلية الفاطمية ، وكان يحضر ابن سينا اجتماعاتهم في بيت والده(١٢). ومن أشهر نظرياته : نظرية المعرفة التي وضع فيها الفلاسفة على قدم المساواة مع الأنبياء ، ثم خصهم بميزة على الأنبياء ، حين قرر أن الفلاسفة استمروا في رسالتهم ، وارتقاء معارفهم ، في الوقت الذي ختمت النبوة بالرسول محمد ﷺ(١٣).

وبعد : فماذا استفاد المسلمون من ترجمة الفلسفة اليونانية ؟ استفادوا الخبرة لفن قتل الوقت ، وقتل العقل ، واستطابوا الإدمان على تعاطي هذه الكأس ، التي يقدمها السفسطائيون للإجهاز على الأمم القوية عندما تبلغ القوة مداها ، مقابل ما خسر المسلمون من الإيمان الفطري ، والاعتقاد النقي ، وتهاونوا في دينهم ، وفرطوا في لغتهم ، وانشغلوا في محاولات عقيمة ، وداروا في حلقة مفرغة ، ووقعوا في أغلاط اليونان ، لأنهم أخذوا دون تمحيص ، ودون أن يردوا ما أخذوا إلى القرآن والسنة ، بل بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يردون القرآن إلى آراء اليونان ، كقول إخوان الصفا :

« إن إدريس هو (هرمس) المثلث بالحكمة ، صفت نفسه ، فصعدت إلى السماء ، وطافت مع بعض أجرامها ثلاثين عاما ، وشاهدت من العجائب مالا يشاهده إلا من يطوف ذلك الطواف ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم (في زعمهم) في قوله تعالى : ﴿ **ورفعناه مكانا عليا** ﴾»(١٤).

وهذا نوع من فهم القرآن لايجيزه القرآن ، ولا العقل ، ولعلنا لو بحثنا تاريخ الفلسفة الإسلامية ، وماكان من المتكلمين من علماء المسلمين من خلافات لوجدنا أكثر هذه الخلافات ، إن لم يكن كلها ، راجعا إلى قضايا أخذها المسلمون عن اليونان من غير تمحيص(١٥) ، وساعدهم في ذلك الترف والحياة الباذخة والفراغ

---

(١١) طبقات الأطباء ص ٤٤٦.

(١٢) نفسه ص ٤٣٧ وسير أعلام النبلاء ج١٦ ص ٥٣١.

(١٣) انظر ابن سينا ـ إثبات النبوات. مقدمة ص ١٣.

(١٤) سورة مريم الآية ٥٧. رسائل إخوان الصفا ج١/١٣٨. والمثلث بالحكمة أي ثلاثي التعليم لأنه كان يصف الباريء تعالى بثلاث صفات ذاتية هي : الوجود ،والحكمة ، والحياة. ـ انظر مختصر تاريخ الدول لابن العبري ص ٧ ـ

(١٥) انظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ثلاثة أجزاء). على سامي النشار.

وفتور حركة الجهاد. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾(١٦).

فأدى كل ذلك إلى الترهل والاستغراق في متاع الأرض بالتدريج ، والفلسفة وليدة الترف الفكري.

ولو كان هناك الوعي الكامل ، لاقتصرت الترجمة على ترجمة العلوم البحتة ، كالهندسة ، والطب ، والفلك ، وغيرها من العلوم النافعة ، وبشرط أن تكون صياغة ترجمتها متفقة مع عقيدة الإسلام. ولكن الخطأ حصل بترجمة جميع العلوم ، ومنها الإلهيات عند ارسطو ، وأفلاطون ، وغيرهم. واستخدم أهل الكتاب في ذلك فتعكر صفو العقيدة لدى المسلمين ، بالفكر الاجنبي ، الذي أقحم على الحياة الإسلامية ، وبضروب الجدل التي زجى بها المتكلمون في أوقات فراغهم(١٧) ، فقال فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية :

«هؤلاء أهل الكلام المخالفون للكتاب والسنة الذين ذمهم السلف والأئمة ، إنهم لم يقوموا بكمال الإيمان ولا بكمال الجهاد بل أخذوا يناظرون أقواما من الكفار وأهل البدع الذين هم أبعد عن السنة منهم ، بطريق لايتم إلا برد ماجاء به الرسول ﷺ ، وهذا لايقطع أولئك الكفار بالعقول ، فلا آمنوا بما جاء به الرسول حق الإيمان ، ولاجاهدوا الكفار حق الجهاد. وأخذوا يقولون : إنه لايمكن الإيمان بالرسول ، ولا جهاد الكفار ، والرد على أهل الإلحاد والبدع ، إلا بما سلكناه من المعقولات ، وإن ماعارض هذه المعقولات عن السمعيات يجب رده تكذيبا ، أو تأويلا أو تفويضا. لأنها أصل السمعيات ، وإذا حقق الأمر عليهم وجد الأمر بالعكس »(١٨).

وهكذا فشا بين المسلمين الجدل الكلامي ، والتمس كل فريق سندا لدعواه في المنطق الكلامي ، وأصبح الهدف افحام الخصوم وغلبة المناهضين وليس التوصل إلى الحق والتماس الصواب. ولذلك قال الذهبي عن علم المنطق : « نفعه قليل ، وضرره وبيل ، وماهو من علوم الإسلام ». كما بين خطر الفلسفة الإلهية ومخاطرها(١٩).

---

(١٦) سورة الرعد الآية ١١

(١٧) انظر الإسلام والطاقات المعطلة. ص ١١٢. محمد الغزالي.

(١٨) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ج١/٢٣٨. تحقيق محي الدين عبد الحميد وحامد الفقي.

(١٩) سير أعلام النبلاء ج١/٢٤ ، وانظر ص ٤٠.

٣ـ الانقسام السياسي لدولة الإسلام :

فقد أفلحت النعرات السياسية في تصعيد بعض التناقضات وتعميق روح الخلافات فأدت إلى الصدع بين الزعامات المسلمة ، وجاء وقت (القرن الرابع الهجري) كان في العالم الإسلامي ثلاثة خلفاء :الخليفة العباسي الشرعي في بغداد ، والخليفة الفاطمي في مصر ، والخليفة الأموي في الأندلس. وهذا أدى إلى اهتزاز ثقة المسلمين بالخليفة ، ثم هانت عليهم الخلافة. وهذا طبعا أدى إلى طمع العدو الخارجي في العالم الإسلامي ،

وأدى إلى ضعف هذا العالم الإسلامي في مواجهة أعدائه ، فتوقف المد الإسلامي ثم أخذ بالانحسار ، ليعود إلى المد من جديد ، في عهد الدولة العثمانية حاملا معه بذور الضعف.

٤ـالشعوبية :

اكتسبت الشعوبية مفهوما خاصا فأطلقت على محتقري العرب والذين يصغرون شأنهم(٢٠). فهي والحالة هذه تعني التعصب ضد العرب ، وقد بدأها الذين تسللوا إلى الإسلام ، وهم يحقدون عليه ، من اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وقد رد بعض العرب بالتعصب للعرب ، فخالف المتعصب ضد العرب ، والمتعصب للعرب ، روح الإسلام ، لأنها حملت روح التفرقة بين العرب ، وغيرهم من المسلمين(٢١). واستغلت الحركة الشعوبية الأدب ، واللغة ، والشعر العربي ، والتأليف ، والمفاخرة ، والمفاضلة بين العجم والعرب(٢٢). فكانت الشعوبية نزيفا ، وضعفا في الأمة الإسلامية ، في وقت تزايدت فيه أخطار التحديات الخارجية على المسلمين ، وعلى العالم الإسلامي (مثل التحدي الصليبي والمغولي).

٥ـ الباطنية :

وكانت من أكبر عوامل الهدم من الداخل في عالم الإسلام ، فقد ضمت جميع العناصر المناهضة للإسلام ، من زرادشتية ، ومانوية ، ويهود ، ونصارى ، وكانت التناقضات فيها تبيض ، وتفرخ ، لأنها عاشت في الظلام ، وآمنت بالتقية ، بل وجعلتها أساس عقيدتها. وقالت الباطنية :

---

(٢٠) لسان العرب ج١/٤٨٢ ، القاموس المحيط ج١/٩١.

(٢١) ويؤيد هذا من معاني الشعب في اللغة : (بمعنى التفريق). انظر لسان العرب ج١/٤٧٩.

(٢٢) انظر أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري للمؤلف.

« إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة »(٢٣) وقرروا أن لظواهر القرآن الكريم ، والأحاديث بواطن تجري مع الظاهر مجرى اللب من القشر ، وأن تصوراتهم توهم الجهال صورا جلية ، وهي عند العقلاء رموز ، وإشارات ، إلى حقائق خفية ، وأن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا ، والأسرار ، والبواطن ، والأغوار ، وقنع بظاهرها ، كان تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع ، ومن ارتقى إلى علم الباطن إنحط عنه التكليف ، واستراح من أعبائه(٢٤).

وبإسقاط التكاليف الشرعية ، وإنكار المسئولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي ، والجزاء الأخروي ، فتح الباب واسعا أمام حرية الشهوات ، واللذات ، والدعوة الإباحية ، وعبادة الجسد ، وقد عمدوا إلى صرف ألفاظ الشرع عن معانيها الظاهرة إلى أمور باطنة ، بغير دليل من القرآن ، والسنة ، وتسقط منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ، لأن الباطن لاضبط له ، بل تتعارض فيه الخواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى ، حسب مقتضى الأهواء ، والغايات ، وهدفهم الرئيسي هو هدم الشريعة ، بتأويل ظواهرها ، وتحريفها ، لتلائم مقاصدهم ، فهم يقولون : للشرائع باطن ، لايعرف إلا بالإمام ، أو من ينوب منابه ، ففسروا : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام** ﴾ بأن القلائد : هم الأئمة المستورون ، والبيت الحرام : هو الخليفة الفاطمي. ومعنى قوله تعالى ﴿ **إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق** ﴾. هو : الإقرار بالإمام الناطق ، الذي يفيض عنه العلم ، ويوصل من قبله إلى معرفة الله تعالى ، والملائكة هم دعاة الإمام ، الذين يأخذون له العهد على المستجيبين ، ويربونهم على عقيدة الباطنية الاسماعيلية ، التي تمنح شخص الإمام الحاكم الريادة العقائدية ، والسياسية المغلقة ، وتمنحه مرتبة إلهية(٢٥).

وكذلك ماورد في الحشر ، والنشر ، وغيرها ، فكلها عندهم رموز ، وأمثلة ، إلى بواطن ، فمعنى الغسل عندهم : بمعنى تجديد العهد عليه ، ومعنى الطهور : التبرؤ من كل مذهب خالف الباطنية ، ومعنى التيمم : أخذ العلم من المأذون ،

---

(٢٣) انظر إخوان الصفا ج١/٦. دار صادر. بيروت.

(٢٤) انظر تلبيس إبليس. لابن الجوزي.

(٢٥) القاضي النعمان المغربي. الرسالة المذهبية ص ٨٢.

ومعنى الصلاة : الدعاء إلى الإمام ، ومعنى الزكاة : بث العلم لمن يزكى ، ومعنى الحج : طلب العلم الذي تشد رحائل العلم إليه ، والجنابة : إفشاء السر ، والكعبة : النبي ، والباب علي ، والتلبية : إجابة الداعي ، والطواف بالبيت سبعا : الطواف بالإمام إلى تمام السبعة ، والنار : الجهل بعلوم الباطنية(٢٦).

ولجأت الباطنية إلى الفلسفة ، يستمدون منها أوهامهم ، فضمت فلاسفة ، ومفكرين ، مثل اخوان الصفاء ، وشعراء : مثل أبي العلاء المعري ، وعلماء : مثل أبي حيان التوحيدي ، وابن سينا ، ووالده ، وتمكنت من إفراز جناح عسكري في القرن الخامس الهجري ، بقيادة الحسن الصباح ، الذي اتخذ قلعة الموت سنة ٤٨٣هـ مركزا له ، يبث منها دعاته ، ليخدعوا الأحداث ، والبسطاء ، ويضمونهم ، (باسم الدين ونصرة آل البيت) ، واستعانوا في التأثير على الأتباع ، بالمخدر ، أو الحشيش ، الذي كانوا يقدمونه لهم ، فإذا أصابهم الدوار ، أمروهم بما يريدون ، ولذلك سموا بالحشاشين. وقد بقيت هذه الفرقة تثير الفتن ، وتنشر الرعب ، وتعاونت مع الصليبيين في الشام ضد المسلمين ، واغتالوا عددا من قادة الإسلام ، كما حاولوا اغتيال صلاح الدين ، أكثر من مرة. بالإضافة إلى أن الباطنية تبرأت من الصحابة رضوان الله عليهم ، وخاصة من أبي بكر ، وعمر ، رضي الله عنهما ، وشوه الباطنيون صور شخصيات كثيرة ، من صدر الإسلام ودسوها في كتب التاريخ ، والأدب ، الأمر الذي مكن أعداء الإسلام فيما بعد من حملة التشويه المتعمدة التي لحقت برجالات القرن الأول الهجري خير القرون. نظرا لأنها موضع الفخر ، والاعتزاز الشديد ، عند المسلم. وجاء المستشرقون وتلاميذهم فتلقفوا آراء الباطنية في تلك الشخصيات باسم البحث العلمي ، والموضوعية.

كما وقفت الباطنية إلى جانب الصليبيين في حربهم ضد الإسلام والمسلمين وخاصة في دمشق عام ٥٢٣هـ ، وإلى جانب المغول كما حدث في تخريب بغداد عام ٦٥٦هـ.

وأما القرامطة من الباطنية فتاريخهم معروف في محاولاتهم القضاء على الإسلام والمسلمين ، وهجومهم على بيت الله الحرام واستحلال دماء المسلمين ونزع الحجر الأسود.

---

(٢٦) انظر فضائح الباطنية ص٥٥ ـ ٥٩ . الإمام الغزالي، أبو حامد .

وبقيت الباطنية نزيفا داخليا لجهد العالم الإسلامي ، تأخذ كثيرا من جهد قادة المسلمين ، ومن أئمة المسلمين ، وعلمائهم ، الذين تصدوا لها بكل عنف.

٦ـ الصوفية :

نشأ التصوف من ينبوعين مختلفين تلاقيا(٢٧) :

الأول : هو انصراف بعض العباد المسلمين إلى الزهد في الدنيا ، والإنقطاع للعبادة. وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك : فقال :

« مابال أقوام يفعلون كذا وكذا ، لكني أصوم ، وأفطر ، وأصلي ، وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »(متفق عليه).

وبعد وفاته ﷺ كثر الزهاد الذين غالوا في الزهادة في الدنيا ، ونعيمها...

وفي وسط تلك النفوس وجد التصوف مكانه إذ وجد أرضا خصبة ، ردا على حياة الترف الذي فشا بين المسلمين.

والثاني : هو ماسرى إلى المسلمين من فكرتين : الأولى : فكرة الإشراقيين من الفلاسفة ، وهم يرون أن المعرفة تقذف في النفس بالرياضة الروحية ، والتهذيب النفسي. والثانية : فكرة الحلول الإلهي في النفوس الإنسانية ، وقد ابتدأت هذه الفكرة تدخل في الطوائف التي كانت تنتمي كذبا إلى الإسلام في الصدر الأول ، عندما اختلط المسلمون بالنصارى ، وقد ظهرت في السبئية ، والكيسانية ، ثم القرامطة ، ثم في بعض الباطنية ، ثم ظهرت في لونها الأخير في بعض الصوفية(٢٨).

وهناك معين آخر أخذت منه فيما يظهر النزعات الصوفية ، وهو : كون النصوص والأحكام ـ أي نصوص القرآن والسنة ـ ظاهر وباطن ـ ويظهر أن المتصوفة استعاروا ذلك التفكير من الباطنية...

فالمغالاة في الزهد ، فتح لأفكار الحلول ، ثم وحدة الوجود ، فظهر التصوف في الإسلام ، الذي اشتد في القرن الرابع والخامس الهجري ، ثم بلغ أقصى مداه فيما بعد ذلك ، بعيدا كل البعد عن هدي القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، حتى بلغ أن المتصوفة يسمون من يتبع القرآن والسنة (أهل الشريعة) و (أهل الظاهر). ويسمون أنفسهم (أهل الحقيقة) و (أهل الباطن). فالتقت الصوفية مع الفلسفة ، والباطنية ، وحجبت كثيرا من المخدوعين عن فهم حقيقة العبادة في

---

(٢٧) ابن تيمية ـ للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٩٧ـ١٩٨.

(٢٨) انظر الإسلام في مواجهة الحركات الفكرية ـ للمؤلف.

الإسلام ، وعمدت إلى تقديس المشايخ فقالوا : « من قال لشيخه لم لم يفلح ». وانتجت التواكل بدلا من التوكل ، الذي أفسد كثيرا من عقيدة القضاء والقدر. وحولها من عقيدة إيجابية دافعة إلى عقيدة سلبية مخذلة ، وإلى الرضاء السلبي بالواقع وعدم محاولة التغيير.

ومن الجدير بالذكر أن الصوفية أخذت تنتشر في المجتمع الإسلامي زمن العباسيين ، ولكنها كانت ركنا منعزلا عن المجتمع ولكنها في عهد الدولة العثمانية ، صارت هي المجتمع ، وأصبحت بالنسبة للعامة هي المدخل إلى الدين ومجال ممارسته. فتسلطت مجموعة من الخرافات والأوهام ، تتعلق بالمشايخ الأحياء منهم والأموات ، وصار التدين هو الإيمان بالشيخ وبكراماته وبأحواله ، وقدرته على اشتفاف الغيب ، وعلى شفاء المرضى من غير دواء ، وقدرته على فك السحر ، واستخراج الشياطين من أجساد من تسلطت عليهم. كما أصبح التصوف هو التعلق بالأضرحة ، والأولياء ، ونذر النذور لهم ، والتقرب بالقرابين ، دون عمل حقيقي بمقتضى الدين.. فقد أصبح هذا في حس العامة هو الدين ، وليس هو ماأنزله الله في كتابه ، وسنة رسوله ﷺ.

وأدرك أئمة المسلمين ، وعلماؤهم ، أهداف الفلاسفة ، والباطنية ، والصوفية ، فكانت لهم جهودهم الموفقة في تفنيد بدعهم ، ورد كيدهم ، وإبراز الحق واضحا جليا من خلال مصادره الأصلية ، كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ.

ومن أبرز هؤلاء العلماء الأئمة الأربعة ، ثم الإمام ابن تيمية وابن القيم اللذان كانت لهما صولات وجولات مع أرباب البدع ، وأئمة الكلام ، وأساطين الفلاسفة ، فأوسعوا نظرياتهم وأقوالهم نقضا ، ونقدا ، من خلال الفهم الأصيل ، والاعتقاد المستقيم ، والمنهج القويم ، لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهما العروة الوثقى التي يجب على كل مسلم أن يتمسك بها مصداقا لقوله ﷺ :

« تركت فيكم ماإن تمسكتم به لن تضلوا ، كتاب الله وسنتي ».

وفي العصور الحديثة هاجمهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والشيخ الدهلوي ، والشيخ أبو زهرة ، وغيرهم ، فكان العلماء المخلصون بالمرصاد لكل من يحاول العبث بدين الإسلام.

٧ـ الإسرائيليات(٢٩) :

وهي جميع العقائد غير الإسلامية ، لاسيما تلك التي دسها أهل الكتاب من اليهود ، والنصارى ، بواسطة من تظاهر منهم بالإسلام ، فتمكنوا من دس تفاصيل كثيرة باطلة ، وتوسعات عديدة ، تتعارض مع الإسلام القائم أصلا على التوحيد ، والمتصل اتصالا واضحا بالإيمان بالغيب ، والبعث ، والجزاء ، والمستمد من قواعد القرآن الكريم ، ومنهجه ، ومنطقه ، في مواجهة مختلف القضايا ، والأمور الخاصة ، فيما يتعلق بعالم الغيب ،وماوراء المحسوس ، وعلى عصمة الأنبياء والرسل.

ومن المعلوم أن مدارس للتفسير تكونت في زمن الصحابة ، والتابعين ، وتداولت تلك المدارس مجموعة من التفسير بالمأثور ، المنسوب بعضه إلى النبي ﷺ ، والمنسوب كثير منه إلى الصحابة ، وأكثره منسوب إلى التابعين كمجاهد ، وقتادة ، ومسروق ، والحسن البصري ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وغيرهم ، وهم كثيرا ماختلط بتفسيرهم من الاسرائيليات ، وأدخل أعداء الإسلام في هذا الباب كثيرا من الأوهام المضللة ، فقد توسع التابعون في الأخذ عن أهل الكتاب فكثرت الروايات الاسرائيلية في التفسير لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام ، وميل نفوس القوم إلى سماع التفاصيل ، عما يشير إليه القرآن(٣٠). ثم جاء بعد هؤلاء التابعين من عظم شغفه بالاسرائيليات ، وأفرط في الأخذ منها ، إلى درجة جعلتهم لا يردون قولا ، ولا يحجمون أن يلصقوا بالقرآن الكريم كل مايروى لهم ، وإن كان بعيدا عن النص ، كالروايات في اسم الشجرة التي أكل منها آدم ، وأسماء أصحاب الكهف ، واسم كلبهم... واستمر هذا الشغف بالاسرائيليات ، والولع بنقل هذه الأخبار ، التي أصبح الكثير منها نوعا من

---

(٢٩) انظر ـ تفسير ابن كثير ج١/٤/طبعة الحلبي بمصر. حيث قسم الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام :

الأول : هو ماعلمنا صحته مما بأيدينا من الكتاب والسنة. والقرآن هو الكتاب المهيمن والشاهد على الكتب التي قبله ،فما وافقه فهو حق صدق ، وماخالفه فهو باطل وكذب. وهذا القسم عندنا غنية عنه ، ولكن يجوز ذكره ، وروايته والاستشهاد به ولإقامة الحجة عليهم من كتبهم.

والثاني : ماعلمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه ، مثل ماذكروه من قصص الأنبياء ... وهذا القسم ورد عن النبي ﷺ النهي عن روايته ، والزجر عن أخذه عنهم ، وسؤالهم عنه.

والثالث : هو مسكوت عنه ، لا من هذا ، ولا من ذاك. فلا نؤمن به ، ولانكذبه ، لاحتمال أن يكون حقا فنكذبه ، أو باطلا فنصدقه. والأولى عدم ذكره ولانضيع الوقت في الاشتغال به.

(٣٠) التفسير والمفسرون ج١/١٧٦. أحمد حسين الذهبي. ط لبنان.

الخرافة ، إلى أن جاء دور تدوين التفسير ، فوجد من المفسرين من ضمنوا كتبهم بالقصص الاسرائيلي.

لقد نجح أهل الكتاب في دس الاسرائيليات ، وأبرز مافيها مادة الكهانة ، والتنبؤات ، التي كان لها أثر سيء على المسلمين في عصور الضعف ، والتخلف ، وتلك التفسيرات للآيات القرآنية ، والتوسع في أوصاف الملائكة ، والجنة ، والنار ،والحشر ، وتصويره تصويرا يخرج بها عن أصلها القرآني ، والغمز في صحة عصمة الأنبياء ، والرسل عليهم السلام.

وقد ذهب أكثر الباحثين ، إلى أن أكثر الأحاديث الموضوعة من الاسرائيليات ، إنما وضعت عن تدبير ، وتخطيط ، وخصومة ، وكيد ، وأنها من عوامل الحرب الفكرية ، والعقائدية الضارية ، التي شنها اليهود ، وغلاة النحل المبتدعة ، على الإسلام ، والمسلمين ، بكافة الوسائل من التخفي ، والتسلل ، والتمويه ، بقصد تمزيق وحدة المسلمين ، وتلهيتهم عن دينهم القويم ، وتشتيتهم عن طريقهم المستقيم(٣١). وقد تنبه علماء المسلمين إلى مقاصدهم ، وإلى هذا الخطر منذ وقت مبكر ، فقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، يحذر من الأخذ عن أهل الكتاب « يامعشر المسلمين : كيف تسألون أهل الكتاب ، وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ ، أحدث الأخبار بالله ، تقرأونه لم يشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ماكتب الله ، وغيروا بأيديهم الكتاب ، فقالوا : هذا من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا ، أفلا ينهاكم ماجاءكم من العلم عن مسائلتهم ، ولا والله مارأينا رجلا منهم قط يسألكم عن الذي أنزل إليكم(٣٢) ».

وأثر عن الإمام أحمد بن حنبل قوله :

« ثلاثة لا أصل لهم : التفسير والملاحم والمغازي ». أي أنها ليست ذات أسانيد صحيحة متصلة(٣٣).

٨- **التعصب المذهبي** : شاعت منذ القرن الرابع الهجري بدعة التعصب

---

(٣١) الإسلام والدعوات الهدامة ص ٢٢٤. أنور وجدي.

(٣٢) صحيح البخاري/كتاب الشهادة ، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها. حاشية السندي ج٢ ص٧٤.

(٣٣) هنالك عدة توجيهات لعبارة أحمد منها : أنه قصد كتبا مخصوصة ، ومنها ماذكرناه من الكتب لكنها ليست على إطلاقها فهناك روايات كثيرة مسندة صحيحة متصلة في التفسير والملاحم والمغازي.

المذهبي. فانتج ذلك مخالفة الكثير من النصوص الصحيحة ، وتقديم الرأي عليها ، ونشر الفتن والخلاف بين المسلمين ، والتحايل على الدين ، والجمود على التقليد ، وإغلاق باب الاجتهاد ، والاشتغال بالافتراضات الخيالية. الأمر الذي أدى إلى شيوع الجهل. على المدى الطويل.

وقد منع الاجتهاد بعد القرن الرابع الهجري ، ثم ساد اختيار كتب الفقه المتأخرة الخالية من الأدلة الشرعية ، فقلت دراسة الكتاب والسنة ، والرجوع إليها عند الخلاف. فانحرف الناس عن السنة ، وشاعت البدع ، ووصل الأمر أن أبا الحسن عبيد الله بن الحسن الكوفي رئيس الحنفية بالعراق في القرن الرابع الهجري الذي صنف المختصر ، وشرح الجامعين الصغير والكبير لمحمد بن الحسن قال : « كل آية تخالف ماعليه أصحابنا ، فهي مؤولة أو منسوخة ، وكل حديث فهو مؤول أو منسوخ »(٣٤).

فقدم أقوال أهل المذهب على الكتاب والسنة. فما الفرق بين قوله وأقوال الصوفية ، والباطنية ، والفلاسفة؟

وقد وصل الخلاف والخصام بين مقلدة المذاهب إلى درجة خطيرة ، فعادى بعضهم بعضا ، وصار يسعى بعضهم بالكيد ، والأذى للبعض الآخر ، فتسبب ذلك في الفتن الكثيرة ، والقتال فيما بينهم(٣٥). وقد حاول كثير من العلماء أن يقف في وجه تيار التعصب المذهبي ، فكان نجاحه ضئيلا. وقد قال العالم منذر ابن سعيد البلوطي خطيب الخليفة عبد الرحمن الناصر بالأندلس يشكو حال المذهبيين ، وموقفهم من الكتاب والسنة(٣٦)

عذيري من قوم يقولون كلما ... طلبت دليلا هكذا قال مالك
فإن عدت قالوا هكذا قال أشهب ... وقد كان لايخفى عليه السالك
فإن زدت قالوا سحنون قبله ... ومن لم يقل ماقاله فهو آفك
فإن قلت : قال الله ضجوا وأكثروا ... وقالوا جميعا أنت قرن مماحك

(٣٤) الخضري ـ تاريخ التشريع الإسلامي ص٢٥٦، ٢٣٢ .

(٣٥) انظر في ذلك : البداية والنهاية لابن الأثير ج١٢ ، ص١٨ ، ج١٣ ص١٩ ، ٢١ ، الكامل لابن الأثير ج٨ ص١٠٦ ، ج٩ ص٢١٥ ، ومعجم البلدان لياقوت ج١ ص٢٧٣ .

(٣٦) محمد عيد عباسي ـ المذهبية المتعصبة ص٢٤٧ .

وإن قلت : قال الرسول فقولهم ائت مالكا في ترك ذاك المسالك

وقد أدت هذه التحديات الداخلية ، مع مارافقها من تحديات أخرى ، وتحديات خارجية ، إلى شدة الضغط على العالم الإسلامي ، وقادت إلى الضعف ، والتفكك ، والإنحلال ، وتردى المسلمون إلى حالة من العجز في مجال الإختراع ، والإبداع ، وسادهم الجمود ، والتقليد ، والتواكل ، والانحراف ، عن النهج القويم ، والابتعاد عن الشريعة ، وشاب إيمان المسلمين كثير من الكدر ، فانهارت قواهم ، ووقع العالم الإسلامي لقمة سائغة في يد الاستعمار الأوربي الحديث ، وخر صريعا أمام الهجمات الشرسة ، التي قادتها الصليبية الحديثة ، مع الصهيونية ، والشيوعية.

الفصل الثاني

العوامل الخارجيـــة

١ ـ التحدي المغولي «التتري» :

المغول والتتار قبائل موطنهم الأصلي منغوليا (شمال صحراء غوبي) ، وكانت هذه القبائل تقضي أوقاتها في النزاعات القبلية ، وفي البحث عن منابت العشب ، ودانت بالوثنية ، التي تعرف باسم (الشامانية)(١). تقول بوجود قوتين : « قوة الخير والنور والدفء ، وقوة الشر والظلام والبرد ، ويسكن إله الخير في الشرق ، وإله الشر في الغرب. وتقوم ممارساتها على السحر وعلى الرشاقة الجسدية من رقص وغيره ، فاكتسبت كلمة شامان معنى «الساحر».

واستطاع تيموجين بن بسوكاي ، الذي ولد في منغوليا ، عام ٥٤٩هـ/١١٥٥م، أن يوحد هذه القبائل عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، ووضع لهم دستورا اجتماعيا ، حربيا ، مختصرا عرف باسم (الياسة الكبرى) أو (اليساق)(٢) بالغ الشدة والعنف ، للطاعة فيه أكبر نصيب ، فكانوا أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم(٣) ، دون معرفة معاني الشفقة ، أو الرحمة(٤) ، وبعد أن وحدهم لقب نفسه (جنكيزخان) أي أعظم الملوك. واندفع بهم إلى الصين ، واستولى على بكين عام ٦١٢هـ ، فاستولى بذلك على مزيد من الكنوز ، والنفائس ، وتعلم المغول استعمال البارود(٥) ، ثم قضى على دولة الخطا السوداء (قره خطي) التركية ، المتاخمة لبلاد الصين ٦١٥هـ(٦)، فأصبح يطرق أبواب العالم الإسلامي ، ويتحداه ، وكان هذا التحدي شريكا لبعض الوقت للغزو الصليبي على عالم الإسلام ، وقد حمل بهمجية ، وبربرية ، ووحشية على العالم الإسلامي ، وكانت حملاته وحملات أخلافه ، غاشمة كمد البحر ، أو الطوفان ، الذي كاد يغرق ، ويبدد ، أو يقوض الحضارة الإسلامية.

---

(١) انظر المغول في التاريخ.د. فؤاد الصياد. ج١/٣٢-٣٥. ، معالم تاريخ الإنسانية ص ٩٢٣.

(٢) انظر هذا الدستور/المقريزي ـ المواعظ والاعتبار ج٢/٢٢٠-٢٢١.

(٣) صبح الأعشي ـ القلقشندي ج٤/٢١٢.

(٤) انظر الكامل ج٩/٣٢٩-٣٣١.

(٥) المغول في التاريخ ص ٥٣.

(٦) نفسه ص ٥٧.

اصطدم جنكيزخان بالدولة الإسلامية الخوارزمية ـ وكانت قد ظهرت سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م بعد أن ضعفت دولة السلاجقة ، وكانت بمثابة السور الفولاذي المنيع ، الذي يحمي الجبهة الإسلامية من جهة المشرق(٧) ، تمتد من العراق العجمي غربا ، إلى نهر السند شرقا ، ومن شمال بحر قزوين ، وآرال شمالا ، إلى الخليج العربي ، والمحيط الهندي ، جنوبا شاملة : أذربيجان ، والعراق العجمي ، وفارس ، وكرمان ، وكمران ، وسجستان ، وخراسان ، وأفغانستان ، والبامير ، والصغد ، وماوراء النهر. وكان على رأس هذه الدولة حين بدأت تطرقها المطارق المغولية السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه.

هاجم جنكيزخان الدولة الخوارزمية سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، وخاضت خوارزم حربا مدمرة مدة خمس سنوات ، إلى أن تمزقت أوصالها ، واكتسح المغول أراضيها ،وأقاموا المجازر في بخارى(٨) ، وسمرقند(٩) ، ومرو ، ثم بلخ ، ونيسابور ، والري ، وهمدان ، وغزنه ، فأبيد الملايين من السكان ، وتهدمت ألوف المساجد ، ودور العلم العامرة ، وتحولت حواضر الإسلام الزاهرة في تركستان ، وفارس ،

---

(٧) انظر النجوم الزاهرة. أبو المحاسن. ج٦/٢٧٧.

(٨) وصف ابن الأثير حالة الناس في بخارى يوم سقوط المدينة سنة ٦١٦هـ ومن وصفه :

« كان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان، وتفرقوا أيدي سبأ ، وتمزقوا كل ممزق ، واقتسموا النساء أيضا ، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها ، كأن لم تغن بالأمس ، وارتكبوا من النساء العظيم ، والناس ينظرون ، ويبكون ، ولايستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئا مما نزل بهم ، فمنهم من لم يرض بذلك، واختار الموت على ذلك ، فقاتل حتى قتل ... ومن استسلم أخذ أسيرا ، وألقوا النار على البلد ، والمدارس ، والمساجد ، وعذبوا الناس بأنواع العذاب من طلب المال ». (ابن الأثير. الكامل في التاريخ ج٩/٣٣٢)

وحدث أن أحد السكان فر ناجيا بجلده إلى خراسان فسئل عما فعله المغول بمدينته فقال كلمات موجزة بالفارسية :

« لقد أتوا فخربوا ، وأحرقوا ، وقتلوا ، ونهبوا ، ثم ذهبوا ».الصياد. المغول في التاريخ ج١ ص١١٨ عن الجويني ج١ ص٨٣.

(٩) ووصف ابن الأثير أيضا ماأحدثه التتار في مدينة سمرقند سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م حاضرة بلاد ماوراء النهر وأعظم المدن التجارية آنذاك بعد أن استولوا على قلعة المدينة وجمعوا الأسلحة :

« فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج جميعهم ومن تأخر قتلوه ، فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارى من القتل والنهب والسبي والفساد ، ودخلوا البلد فنهبوا مافيه وأحرقوا الجامع واقتضوا الأبكار وعذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبي.(الكامل في التاريخ ج٩/٣٣٣)

إلى كتل من اللهب ، والخراب. وترك جنكيز الدولة الإسلامية الخوارزمية أشبه ماتكون بصحراء جرداء ، فأباد سكانها ، وخرب مدنها العامرة ، وأحرقها.

توفي جنكيزخان عام ٦٢٤هـ/١٢٢٧م فقام حفيده هولاكو بإتمام دوره في بلاد الإسلام ، فتحالف مع الصليبيين ، وكانت أمه نصراينة قال عنها ابن العبري : « أحسنت تربية الأولاد ، وضبط الأصحاب ، وكانت لبيبة مؤمنة ، تدين بالنصرانية ، وتعظم محل المطارنة والرهبان ، وتقتبس صلواتهم وبركتهم »(١٠) كما كانت زوجته نصرانية ، وأعلن الخاقان الأعظم أنه إنما أرسل هولاكو إلى غرب آسيا ليقضي على الخلافة العباسية ، ويعيد بيت المقدس ، بعد أن كان قد حررها صلاح الدين عام ٥٨٣هـ. فاعتبر هولاكو نفسه محررا للنصارى من المسلمين ، وأرسل إلى الصليبيين قبل أن يبدأ غزوه المسلمين يقول :

« إن لدينا أعدادا كبيرة من المسيحيين بين قبائلنا ، وقد جئنا بقوتنا ، وسلطاننا معلنين ضرورة تحرير جميع المسيحيين من العبودية ، ومن الضرائب ، التي فرضها عليهم المسلمون ، ومعلنين ضرورة معاملة المسيحيين معاملة تليق بهم ، فلا يعتدى عليهم ، ولا على تجارتهم أحد ، ونحن نصرح بأننا سنعيد بناء الكنائس التي خربها المسلمون(١١) ».

كما قام وزير المستعصم الخليفة العباسي وهو (ابن العلقمي محمد بن محمد) بمكاتبة هولاكو ، وجسره ، وقوى عزمه على قصد العراق ، وابن العلقمي هذا رافضي شيعي ، قام بإضعاف الخلافة العباسية بمكائده المختلفة ، وأضعف الجيش ، وقلل عدده ، وأشار على الخليفة بمداراة هولاكو(١٢). فاستطاع هولاكو بتشجيع من النصارى ، والشيعة ، الوصول إلى بغداد عاصمة دار الإسلام ، ودار السلام ، وبمساعدتهم تمكن دخول بغداد بجحافله ، فخربوا المساجد وأتلفوا المكتبات ، بإحراق الكتب ، أو بإلقائها في نهر دجلة ، وقتلوا معظم سكان بغداد دون أن يستثنوا إمرأة ، أو طفلا ، ودون أن يعطفوا على مريض ، أو يقدروا عالما(١٣).

---

(١٠) مختصر تاريخ الدول ص ٢٤٨.فهو يتعصب لها ، رغم أنه كان يعيش في كنف المسلمين.

(١١) Lamb,The Flame of Islam pp 337

وقد ألف ميشيل السوري (ت عام ٦٩٥هـ/١١٥٩) كتابا هاجم فيه المسلمين ، واعتبر الغزو المغولي بمثابة انتصار للنصرانية. فاروق عمر (العباسيون الأوائل) ج٢ ص١٦١

(١٢) الذهبي - سير أعلام النبلاء ج٢٣ ص١٨٠ ، ٣٦٣.

(١٣) أبو الفدا - المختصر - ج٣ ص٢٠٣.

وقد قدر المؤرخون القتلى بمليون وثمانمائة ألف ، وبمليون ، وبثمانمائة ألف (١٤) وقتل الخليفة المستعصم ، بتشجيع وتحريض من ابن العلقمي ،ونصير الدين الطوسي الاسماعيلي ، فابن العلقمي نصح هولاكو بقوله : « بل المصلحة قتله ، وإلا فما يتم لكم ملك العراق »(١٥) أما نصير الدين الطوسي الاسماعيلي ، فكان وزيرا ، ومشيرا لهولاكو ، استصحبه هولاكو ، فهون عليه تخريب بغداد وقتل الخليفة المستعصم(١٦). وجميع أفراد أسرته وأهل بيته.

وكان ابن العلقمي يطمع أن يزيل السنة بالكلية وأن يظهر البدعة الرافضة باتخاذه عند هولاكو يدا ، وعمل بالفعل على تعطيل المدارس ، والمساجد ، والجماعات ، والجمعات ، والربط ببغداد ، واستمر بالمشاهد ، ومحال الرفض ، وكان يريد أن يبني مدرسة هائلة للرفض(١٧). ولكن هولاكو أهمله ، وأذله ، فذاق وبال أمره ، وتوفى مذموما مدحورا.

وهكذا أصبحت بغداد ـ دار السلام ـ بفعل التتار ، والنصارى ، والرافضة مأوى لجماعة من النصارى ، والزط ، والشيعة ، والوثنين ، فقد طلب هولاكو من بطريق النساطرة أن يجمع النصارى في إحدى الكنائس ، حتى يميزوا عن غيرهم ، فلا يتعرض لهم جند التتار.

وكان سقوط بغداد عاصمة الخلافة أشبه بزلزال رهيب ، دك بنيان بلاد الإسلام من أقصاها إلى أقصاها ، ونظم الشعراء من العرب ، والفرس ، المراثي التي تشيع الأسى في النفس وتثير الشجون(١٨).

تقدم هولاكو بعد ذلك إلى الشام ، وهاجم حلب ودخلها بعد حصار شديد وتركها شعلة من اللهب والدخان ، ودخل كتبغا دمشق ، فسقطت حاضرة الشام صريعة تحت أقدام المغول سنة ٦٥٧هـ، واشتركت معه فرق نصرانية أرمنية ، وافرنجية ، فسنحت للنصارى الفرصة للتشفي ، والانتقام من المسلمين ، فنظموا مواكب عامة ، حملوا فيها الصلبان ، وأنشدوا الأناشيد ، ويذمون دين الإسلام وأهله ، وأجبروا المسلمين على أن يقفوا احتراما لمواكبهم ، ومن امتنع تعرض

(١٤) الذهبي ـ سير أعلام النبلاء ـ ج٢٣ ص١٧٩ البداية والنهاية ج١٣ ص٢٠٢/السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٤٧٢.

(١٥) الذهبي ـ سير ـ ج٢٣/١٨٠.

(١٦) البداية والنهاية ج١٣/٢٠١، ٢٦٧.

(١٧) البداية والنهاية ج١٣/٢٠١/الذهبي ج٢٣/١٨٠.

(١٨) البداية ج١٣/٢١٩ ، الذهبي ـ دول الإسلام ج٢/١٢٥ ، المقريزي ـ السلوك=

للسب والإهانة ، وبلغ بهم التحدي أقصاه فدقوا النواقيس ، وتظاهروا بالخمر في رمضان ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات ، كما صبوه على أبواب المساجد ، ولم يستثنوا حتى الجامع الأموي ، فضجر المسلمون ورفعوا شكواهم إلى (ابل سبان) متسلم البلد وكان نصرانيا فلم يحفل بهم ، بل أهانهم ، وضرب بعضهم ، وأخذ يزور الكنائس ، ويعظم رجالها على اختلاف مذاهبهم(١٩).

وقيض الله سبحانه وتعالى لأمة الإسلام : المماليك في مصر ، بقيادة قطز ، والظاهر بيبرس ، وعلماء مثل العز بن عبد السلام (سلطان العلماء ، فتحركت في الأمة روح الجهاد ، واستثيرت طاقات الأمة ، ووجهت إلى الجهاد في مصر ، والشام ، وتحركت جيوش الإسلام من مصر عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م والتقت بجيوش المغول تؤيدهم وتؤازرهم بعض النجدات النصرانية من الأرمن والكرج - في عين جالوت - بين بيسان ، ونابلس ، على أرض فلسطين(٢٠) في ٢٥ رمضان ، وألقى قطز بخوذته على الأرض أثناء المعركة ، وصاح بصوت كالرعد :

« واإسلاماه ، اللهم انصر عبدك قطز على التتار(٢١) » فكتب الله النصر المبين للإسلام ، وانهزم المغول هزيمة منكرة لأول مرة في تاريخهم ، بعد أن كانت القلوب قد يئست من النصرة عليهم ، لاستيلائهم على معظم البلاد الإسلامية ، ولأنهم ماقصدوا إقليما إلا فتحوه ، ولا عسكرا إلا هزموه(٢٢). فتكسرت حدة موجات التتار ، وتحول مدهم إلى جزر ، واسترجع المماليك منهم الشام بأكملها ، فكانت عين جالوت فاتحة سلسلة من الانتصارات توالت على المسلمين ، وحطمت أسطورة قوى المغول ، وعاد دين الإسلام غض الإهاب(٢٣). وأسلم (بركة خان) حاكم القبجاق وابن عم هولاكو ، فساعد المسلمين ضد ابن عمه(٢٤).

وبقي المسلمون يقاسون الأمرين من المغول ، في فارس ، والعراق ، واستمرت غاراتهم على الشام ، والمسلمون يردونهم ، كما حدث في وقعة حمص سنة

= ج١ق٢/٤٢٥/النجوم الزاهرة ج٧/٨٠.

(١٩) البداية والنهاية ج١٣/٢١٩.

(٢٠) ياقوت - معجم البلدان - ج٤/١٧٧.

(٢١) المقريزي - الخطط. ج٢/٣٨.

(٢٢) أبو الفدا - المختصر ج٣/٢١٤/النجوم الزاهرة ج٧/٩٠ - ٩١.

(٢٣) انظر القلقشندي - صبح الأعشى ج٧/٣٦٠-٣٦٢.

(٢٤) البداية والنهاية ج١٣/٢٤٩ ، المقريزي - السلوك ج١ق٢/٣٩٥.

٦٨٠هـ(٢٥). وقد هداهم الله للإسلام فضاع على الصليبيين أملهم في الانتصار على المسلمين ، كما ضاعت مجهوداتهم من قبل في الشام ، فقد أعلن أحمد بن هولاكو إسلامه عام ٦٨٠هـ(٢٦). ولكن حالة المسلمين لم تمكنها من أن تبعث في نفوس المغول النواحي الإيجابية ، التي تقود إلى الأصالة ، وإلى المساهمة في رفع شأن الإسلام كدين ، وشريعة ، والمساهمة في بناء صرح الحضارة الإسلامية ، وأعمال (قازان) الذي غزا الشام ، واجتاحها ، سنة ٦٩٩هـ إلى سنة ٧٠٢هـ ، وفعله القبائح(٢٧) ، دليل على ذلك. فاستمر العلماء يحرضون على جهادهم فكانت موقعة شقحب الفاصلة سنة ٧٠٢هـ، التي انهزم فيها التتار هزيمة منكرة. وكانت فتوى شيخ الإسلام (ابن تيمية) في حربهم ، وبين الشيخ من تعاون مع التتار وسبب تعاونهم ذلك(٢٨). واستمرت قسوة التتار كأعمال (تيمورلنك) ، إذ ملأ بلاد آسيا الوسطى والغربية قتلى ، وأشلاء ، وأكداس من الجماجم وخرائب ، وقد لحق بالشام من فتكه وتدميره الشيء الكثير(٢٩).

وهكذا أسهم الغزو المغولي في ضعف بلاد الإسلام وفي انهاكها ، وقد عبر السيوطي عن مأساة هذا الغزو بقوله : «هو حديث يأكل الأحاديث وخبر يطوي الأخبار ، وتاريخ ينسي التواريخ ، ونازلة تصغر كل نازلة ، وفادحة تطبق الأرض وتملأها مابين الطول والعرض»(٣١).

وقال ابن الأثير في كامله ـ وهو لم يشهد خراب بغداد بل شهد خراب ماوراء النهر وخوارزم من بلاد الإسلام ـ : «حادثة التتار من الحوادث العظمى والمصائب الكبرى التي عقمت الدهور عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال قائل :إن العالم منذ خلقه الله تعالى إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فإن التواريخ لم تتضمن مايقاربها(٣١).

---

(٢٥) البداية والنهاية ج١٣/٢٩٥.

(٢٦) ابن عبد الظاهر ـ محيي الدين ـ تشريف الأنام والعصور في سيرة الملك المنصور/تحقيق مراد كامل ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٦٩م/ص ٢٤.

(٢٧) البداية والنهاية ج١٤/٦-٢٣/النجوم الزاهرة ج٨/١٤٢-١٤٦.

(٢٨) انظر ـ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية/للإمام محمد بن أحمد بن عبد الهادي/ دار الكتب العلمية ـ بيروت / لبنان ص ١٢٠-١٤١.

(٢٩) صبح الأعشى ج٨/١٠٣-١٠٦.

(٣٠) تاريخ الخلفاء ص ٤٦٧.

(٣١) الكامل في التاريخ ج٩/٣٢٩.

٢ ـ الحروب الصليبيـــة :

مثل التحدي الصليبي ، التحدي الرئيسي في مواجهة الإسلام والمسلمين ، واستغلته اليهودية في صراعها مع الإسلام ، وقد حملت الدولة البيزنطية وزر مقارعة الإسلام فكريا ، وعسكريا ، من أول ظهوره ، إلى أن تهاوت وانهارت نهائيا تحت مطارق الإسلام عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. فانتقل ذلك إلى الامبراطورية الروسية ، والنمساوية ، وفرنسا ، وانجلترا ، في الوقت الذي كان فيه الاسبانيون ، والبرتغاليون ، يتحركون بدافع الحقد على الإسلام والمسلمين ، ويدفعون المسلمين عن الأندلس. وكل أولئكم يحركهم البابا في روما ، وتنفخ فيه الكنيسة روح الحقد على المسلمين ، وتثيرها حربا لاهوادة فيها. وبقيت هذه الروح هي المسيطرة حتى بعد أن انشقت الكنيسة الكاثوليكية ، وقامت بحركة الاصلاحات الدينية.

تمكن الأتراك السلاجقة أن يحيوا روح الجهاد في الأمة ، فحملوا راية الجهاد ، بعد منتصف القرن الخامس الهجري ضد البيزنطيين واصطدم سلطانهم ألب ارسلان بقوة بيزنطية هائلة ، كان يقودها الامبراطور ديوجينس ، وقد تشتت شمل النصارى في معركة ملاذكرد ، (مانزكرت) عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م وكانت معركة من المواقع الحاسمة في التاريخ ، نتج عنها انتشار الإسلام في آسيا الصغرى ، وتركيزه ، وأصبحت من ذلك اليوم من ديار الإسلام. فاتجه أباطرة بيزنطة لتسوية الخلاف مع البابا ، واستنجدوا به لحمايتهم ، فوجدوا أذنا صاغية من البابا : (اوربان الثاني) الذي دعا للحروب الصليبية بإعلان (كليرمونت) عام ١٠٩٥ م ، حين ألقى خطابا دعا فيه النصارى للحرب ضد المسلمين ، لاستخلاص بيت المقدس ،ووعد من يشترك فيها من النصارى ،بالغفران الكامل ، فتجاوب هتاف النصارى : « هكذا أراد الله » واتخذوا شعار الصليب ، وبدأوا بالتدفق على بلاد الإسلام ، عام ١٠٩٧م ، فاشتعلت حرب ضارية بدون هوادة طوال قرنين من الزمان.

بدأ التدفق الصليبي في الوقت الذي كان فيه المسلمون قد بدأوا بالتفتت والصراع، بعد وفاة السلطان ملكشاه، سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٢م، فانقسمت الدولة السلجوقية بعد خمس سنوات فقط من وفاته، إلى خمسة ممالك متنافسة هي: مملكة فارس، ومملكة حلب، ومملكة دمشق، وسلطنة سلاجقة الروم والعراق. وفي الوقت نفسه تعرضت بلاد الشام إلى انقسام آخر، وظهرت وحدات سياسية عرفت باسم (الأتابكيات) مثل أتابكية دمشق، والموصل، وبعضها صغير

جدا لايتعدى أسوار مدينة ، أو قلعة واحدة(٣٢). وساد هذه السلطنات ، والاتابكيات ، النزاع والحروب.

وبالإضافة لذلك فقد دخلت هذه الدويلات مع الدولة الفاطمية التي (تحالفت مع الحركة الباطنية الاسماعيلية) في صراع مرير ، استنفذ طاقاتها المادية والبشرية.

وفي هذا الجو تدفقت جموع الصليبيين يشترك فيها أمراء الإقطاع والفرسان ورجال الدين. فانتصروا في البداية ، وأطاحوا بملك سلاجقة الروم ، واستولوا على عاصمتهم نيقية ، سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م ، وكونوا في بلاد الشام ، وآسيا الصغرى ، إمارة الرها ، وإمارة أنطاكية ، وإمارة طرابلس ، ومملكة بيت المقدس اللاتينية ، عام٤٩٢هـ/١٠٩٨م. وضرب الصليبيون مثالا للحقد على الإسلام ، والمسلمين ، فاتسم الغزو بروح التعصب ، والانتقام ، فقد سفكوا الدماء في الرها ، وانطاكية ، وطرابلس ، وبيت المقدس ، وسفكوا دماء سبعين ألف مسلم ، أو يزيد ، في ساحة المسجد الأقصى ، من المجاورين ، والعلماء ، والطلاب ، والعباد ، والزهاد ، وخاضت خيولهم بدم الضحايا من الرجال ، والنساء ، والأطفال(٣٣).

وأذكر هنا مارواه الراهب روبرت ، أحد الصليبيين المتعصبين ، وهو شاهد عيان لما حدث في بيت المقدس واصفا سلوك قومه :

« كان قومنا يجوبون الشوارع ، والميادين ، وسطوح البيوت ، ليرووا غليلهم من التقتيل ، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها ، كانوا يذبحون الأولاد والشباب ، ويقطعونهم إربا ، إربا ، وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد ، بغية السرعة. وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه ، فيبقرون بطون الموتى ، ليخرجوا منها قطعا ذهبية ، فياللشره ، وحب الذهب ، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث... »(٣٤).

وقال كاهن (أبوس) (ريموند داجميل) شامتا :

« حدث ماهو عجيب بين العرب ، عندما استولى قومنا على أسوار القدس ، وبروجها ، فقد قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقل مايمكن أن يصيبهم ، وبقرت بطون بعضهم ، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار ،

---

(٣٢) انظر ـ ابن خلدون ج٥/٢١ ، وانظر البداية والنهاية ج١٢/١٥٦.

(٣٣) المراجع السابقة.

(٣٤) غوستاف لوبون ـ الحضارة العربية ص ٣٢٥ ، وانظر فيليب حتى ـ تاريخ العرب ص ١٩٤ـ ١٩٥

وحرق بعضهم في النار ، فكان ذلك بعد عذاب طويل ، وكان لايرى في شوارع القدس ، وميادينها ، سوى أكداس من رؤوس العرب ، وأيديهم ، وأرجلهم. فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ماتالوا ».

وقال واصفا مذبحة مسجد عمر :

« لقد أفرط قومنا في سفك الدماء ، في هيكل سليمان ، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك ، وكانت الأيدي ، والأذرع المبتورة ، تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها ، فإذا ماتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها... ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك ، فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين ، واليهود ، وخوارج النصارى ، الذين كان عددهم نحو ستين ألفا ، فأفنوهم على بكرة أبيهم في ثمانية أيام ، ولم يستبقوا منهم امرأة ، ولاولدا ، ولاشيخا »(٣٥).

وعمل الصليبيون مثل ذلك في مدن المسلمين التي اجتاحوها. ففي (المعرة) قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع ، والمختبئين في السراديب ، فأهلكوا صبرا مايزيد على مائة ألف إنسان في أكثر الروايات. وكانت المعرة من أعظم مدن الشام بعدد السكان بعد أن فر إليها الناس بعد سقوط انطاكية وغيرها بيد الصليبيين »(٣٦).

ومن الجدير بالذكر أن الحروب الصليبية قد بدأت في الجزء الغربي من العالم الإسلامي قبل هذا التاريخ ، فسقطت صقلية فريسة سائغة لهجمات النورمان سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م(٣٧) ، ومحيت من خريطة البلدان الإسلامية ، فكانت الشهيدة الأولى ، التي ذهبت ضحية الإهمال والتخاذل ، وأما الأندلس فكانت سنة ٤٠٧هـ(٣٨) ، مبدأ التفرق والتمزق فكان عصر ملوك الطوائف ، فأخذت كفة النصارى ترجح ، وأصدر البابا (اوربان) مرسوما حرم فيه على رجال الدين ، والفرسان الأسبان ، المشاركة في صليبيات الشرق ، لأن محاربة المسلمين بأسبانيا لا تقل أهمية واعتبارا عن الحرب الصليبية الشرقية ، فنتج من ذلك أن هرع الكثير من الفرسان من مختلف أوربا إلى الأندلس ، ليساهموا في حرب صليبية هي أقرب

---

(٣٥) غوستاف لوبون ص ٣٢٦-٣٢٧.

(٣٦) الإسلام والحضارة العربية ص ٣٩٦.

(٣٧) ابن الأثير - الكامل ج٨/١٥٧.

(٣٨) المطوي ص ١٨.

سبيلا ، وأيسر مشقة وعناء ، وأعلن البابا (باسكال الثاني) الحرب الصليبية ضد مسلمي الأندلس ، وأصبح من المألوف أن يأذن البابا لملوك الأسبان في استعمال أموال الكنائس لمحاربة المسلمين ،وكانت البعثات الصليبية الواردة من أوربا الشمالية (انكليز ، والمان ، وهولنديون) لا ترى مانعا إذا تعطلت في سيرها أن تعين ملوك الأسبان في حرب المسلمين ، وأن يكتفي البعض منهم بتلك المساهمة. فتعرضت الأندلس المسلمة إلى عملية غزو واستيطان من قبل جميع نصارى أوربا.

وفي سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٤٤م أصدر البابا (جريجوار التاسع) قرارا وعد فيه النصارى الذين يحاربون مع ملك البرتغال ، بغفران ذنوبهم ، كما لو كانوا في الحروب الصليبية في الأراضي المقدسة ، فكان البابا يثير حماس البرتغاليين ضد المسلمين(٣٩). ويتدفق معهم الصليبيون من مختلف أجزاء أوربا.

وتشاء حكمة الله تعالى أن ينهض في كل دور من أدوار التاريخ الإسلامي ، وفي كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي ، رجال يقومون في هذه الأمة على طريقة الأنبياء ، في ميدان القيم ، والمعتقدات ، يجددون أمر الدين ، وينفخون روح الجهاد في الأمة. تبعا للقاعدة التي لا تتخلف : ﴿**إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم**﴾. فظهر في بلاد المغرب دولة (المرابطين) ، ثم (الموحدين) قارعتا الصليبيين في الأندلس. ومن الله تعالى على العالم الإسلامي في القرن السادس الهجري ، بعماد الدين زنكي ، أتابك الموصل ، الذي التف حوله المخلصون من المسلمين ، وجعلوا دولته دار هجرة ، تداعوا إليها من جميع الأقطار ، فأخذ منذ توليه سنة ٤٨٧هـ يعد الناس إعدادا إسلاميا ، ويطهر الدين من التيارات الفكرية المنحرفة ، كالباطنية ، وآثار الفلسفة اليونانية ، والممارسات الفاطمية للعبادات والشعائر ، ويعمل على تحقيق الوحدة الإسلامية بين الشام ، ومصر ، وشبه الجزيرة العربية ، وشمال العراق ، وبدأ بمقارعة الصليبيين ، وهزمهم في معارك كثيرة ، واستعاد الرها ، سنة ٥٣٩هـ ، وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة(٤٠) الفراتية.

---

(٣٩) المطوي ص ١٩١.

(٤٠) الكامل في التاريخ ج٩/٨.

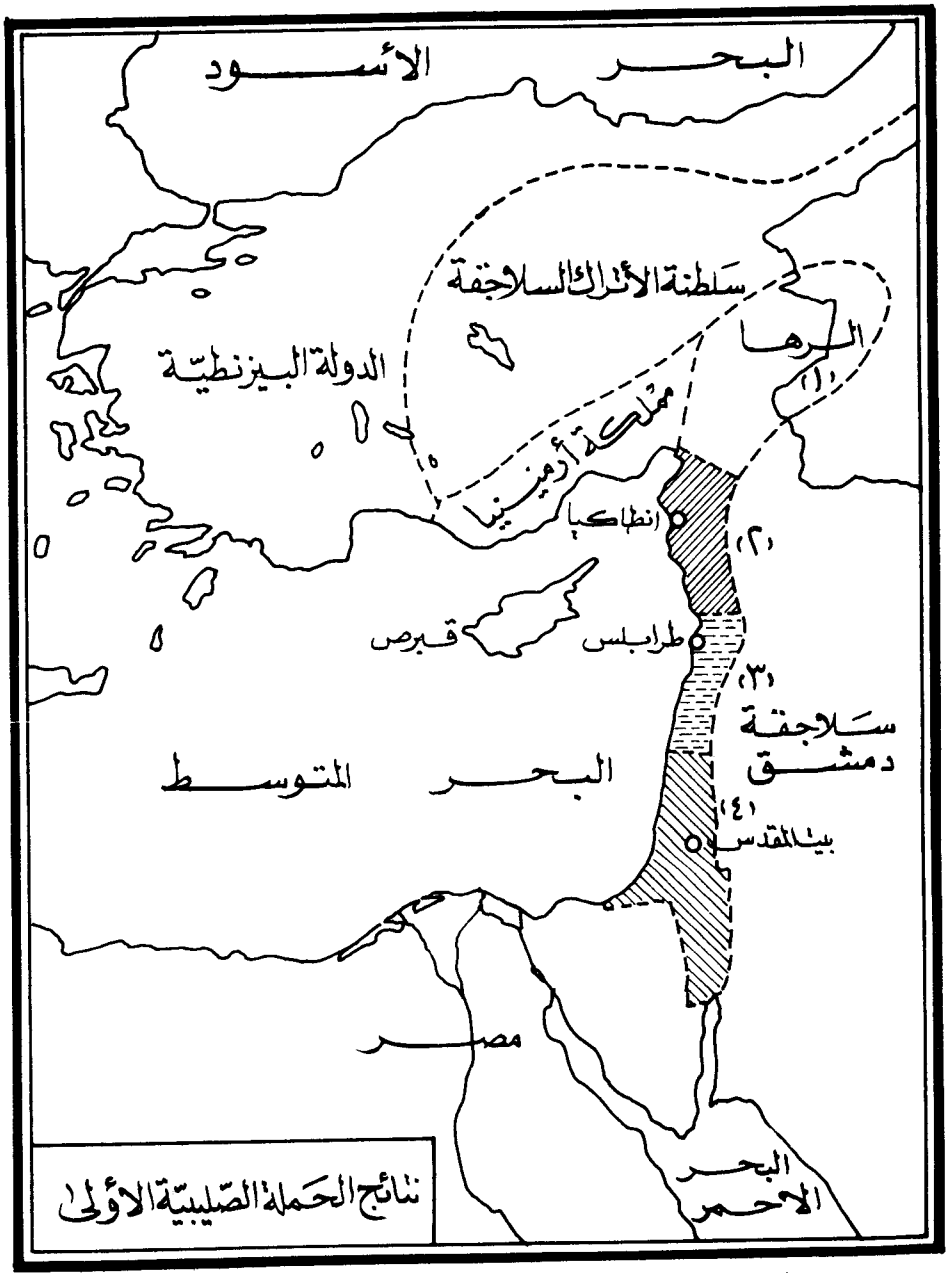

(١) الرها «إمارة»
(٢) انطاكيا «إمارة»
«٣» طرابلس «إمارة»
«٤» بيت المقدس «مملكة»

ولما استشهد سنة ٥٤١هـ(٤١) خلفه ابنه : الملك العادل نور الدين محمود زنكي(ت سنة ٥٦٩هـ)(٤٢)وفي نفس السنة تمكن عبد المؤمن بن علي من الموحدين أن يملك ما في جزيرة الأندلس من بلاد الإسلام (٤٣) يجابه الصليبيين هناك ، وتمكن نور الدين أن يهزم الصليبيين هزائم متوالية ، وأتم توحيد مصر ، والشام ، وشمال العراق ، والحجاز ، فوضع الصليبيين بين فكي كماشة. فقد دخلت قواته مصر ، بقيادة أسد الدين شيركوه ، سنة ٥٦٢هـ(٤٤) وتوفي أسد الدين سنة ٥٦٤هـ ، فوزر صلاح الدين ، ابن أخيه للخليفة الفاطمي ، العاضد ، ولما مات العاضد سنة ٥٦٧هـ ، أقام الخطبة العباسية بمصر ، وألغى الدولة الفاطمية ، وأصبحت مصر جزءا من الدولة النورية تابعة للخلافة العباسية(٤٥).

ولما توفي نور الدين ، رحمه الله ، سنة ٥٦٩هـ ، أتم مهمته ، الناصر صلاح الدين ، يوسف بن أيوب ، الذي هيأه الله سبحانه وتعالى لاستخلاص بيت المقدس ، فقد جمع فيه من خصال الحزم ، والعزم ، والإخلاص ، والحرص على الجهاد ، ونصر الإسلام ، ومكارم الأخلاق ، مالا يجتمع إلا في أفذاذ الرجال ، فكان معجزة من معجزات الإسلام التي تتكرر ، ودليلا على أن الإسلام لم ينته دوره ، ولم يفقد الحيوية ، والانتاج ، فقد استجمع طاقة الأمة ، وهزم الصليبيين في معركة حطين بفلسطين ، عام٥٨٣هـ/١١٨٧م(٤٦) ، وكسر شوكتهم ، واستعاد بيت المقدس ،وأحضر له المنبر ، الذي أعده نور الدين بن محمود للمسجد الأقصى ، فعاد الإسلام إلى تلك الديار غضا طريا(٤٧). وفي الوقت نفسه كان

---

(٤١) الكامل في التاريخ ج٩/١٣.

(٤٢) نفسه ج٩/١٢٤. في خلافة المستضيء بأمر الله ، الذي ولي الخلافة عام ٥٦٦هـ ووصفه المؤرخون أنه (أي نور الدين) كان : « ملكا صالحا ، ظاهر الدين ، بنى المساجد والمدارس والرباطات ، وفتح الأمصار ، وغزا الفرنج عدة غزوات » (المنتظم ج١/٢٤٨ ، الروضتين ج١/٢٢٧ ، أخبار الدول المتقطعة ص ٣٠٩ ، سير أعلام النبلاء ج٢٠/٥٣١-٥٣٩ ، البداية والنهاية ج١٢/٢٨٤) فكانت مجابهته للصليبيين على رأس أعماله المعدودة له رحمه الله.

(٤٣) الكامل ج٩/١٠.

(٤٤) الكامل ج٩/٩٥.

(٤٥) نفسه ج٩/١١١.

(٤٦) نفسه ج٩/١٧٨.

(٤٧) نفسه ج٩/١٨٥ ، وانظر العماد الأصفهاني / الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٣٩٧-٣٩٨ ، وابن شامة / كتاب الروضتين ق٢/٤٢١. وابن شداد - النوادر السلطانية.

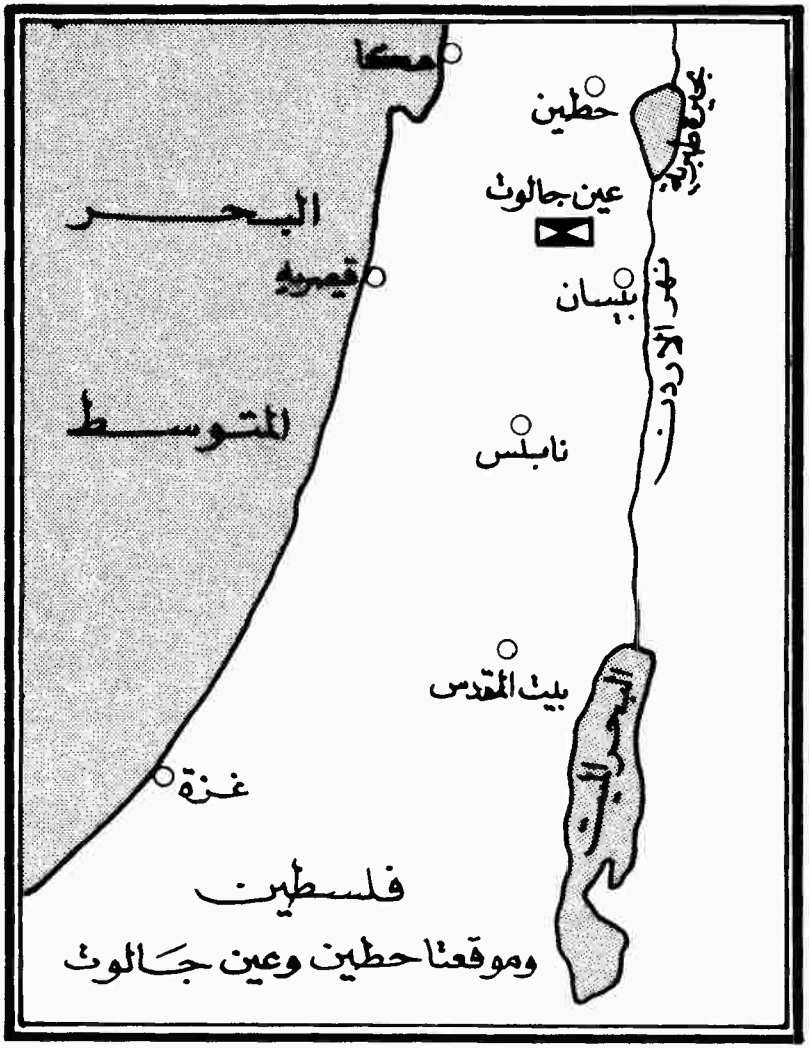

يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي يخوض معركة الأرك ضد الصليبيين في الأندلس سنة **٥٩١هـ**(٤٨). وقد تم دحر الصليبيين نهائيا واخراجهم من بلاد الشام على يد الأشرف خليل بن قلاوون من سلاطين المماليك عام **٦٩٠هـ/١٢٩١م**(٤٩).

---

(٤٨) البداية والنهاية ج١٣/١٠ الذي دعاها بالزلاقة والزلاقة قادها أمير المسلمين عام ٤٧٩هـ ، وهو يوسف بن تاشفين. انظر (بحث الزلاقة للمؤلف ـ مجلة الجامعة العددان٦٩، ٧٠) ، وانظر الكامل في التاريخ ج٩/٢٣٢-٢٣٣

(٤٩) البداية والنهاية ج١٣/٣٢٠.

استطاعت الحروب الصليبية التي استمرت قرنين في المشرق ، استنزاف جميع القوى البشرية ، والمادية ، في منطقة الشام ، ومصر ، واتسم الفكر الإسلامي في هذه الفترة بطابع المقاومة ، والتحدي ، ورد الفعل ، بالدعوة إلى الجهاد ، وابراز القدوة الحسنة ، ذلك كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكما فعل قبله سلطان العلماء العز بن عبد السلام ، ومن نتائجها أيضا ، أن ألقيت مقاليد الأمور بيد العسكريين ، لبروز روح التحدي ، والجهاد هذه ، فجمدت أوضاع المسلمين الإقتصادية ، وتناقصت الثروة ، وضعفت الأيدي العاملة ، بالإضافة إلى الخراب ، والدمار ، الذي حل بالمسلمين في جميع أقطارهم ، وخاصة الشام ، ومصر ، وآسيا الصغرى ، وتونس ، والأندلس.

وقد عزلت الحملات الصليبية الأندلس ، عن قاعدته في المغرب الإسلامي ، وأخذت في تفتيت المسلمين ماديا ، ومعنويا ، بصورة بطيئة ، مع تجريدهم بصورة مستمرة من مصادر قوتهم. وبالرغم من ذلك بقيت الأندلس تقاوم ، واحتملت فوق قدرة احتمال البشر ، على امتداد قرون عديدة ، إلى أن سقطت غرناطة ، آخر معاقل المسلمين ، سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م بيد فرديناند وايزابيلا(٥٠). فاغتصبت أرض الأندلس الإسلامية ، واستوطنها الصليبيون الأوربيون ، وقد عانى المسلمون فيها معاناة عجيبة ، فلم يقبل منهم الصليبيون أحدا ، حتى الذين تنصروا من المسلمين الذين أطلقوا عليهم اسم (المورسك). وخوفا من أن يبقى منهم من يحتفظ بالإسلام ، سلطت النصرانية الصليبية على مدن أوربا محاكم التحقيق ، التي أحرقت الألوف من الناس علنا. وقضت على حضارة المسلمين في الأندلس ، وظهر من المتعصبين الكثيرون مثل (خمينز) الذي فرض النصرانية على أهل غرناطة بالعنف ، ولما طلب المتنصرون أن تكتب لهم تعاليم النصرانية بالعربية ، لغتهم ، رد عليهم : « إننا لانرمي حبات الدر النفيس للخنازير ». وهذا هو نفسه الذي أحرق المخطوطات العربية الرائعة التي بلغت على أقل تقدير ، ثمانين ألف مخطوطة ، في غرناطة وحدها(٥١). وكانت قد ضاعت أيضا صقلية وجنوب ايطاليا وجزر

---

(٥٠) انظر العسلي ـ الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ص ٢٢٩-٢٣١.

(٥١) السامرائي ـ د.قاسم ـ الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ص ٣٦. وعن أحوال المورسك في الأندلس المسلمة المغتصبة. انظر د.لوي كارديك ـ الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون ـ تعريب وتقديم د.عبد الجليل التميمي من منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية / الجزائر ، تونس عام ١٩٨٣م.

البحر الأبيض المتوسط. واستوطنها الصليبيون الأوروبيون ، كما حدث في العالم الجديد إثر الاكتشافات الجغرافية. واستفاد الغرب الصليبي من الحروب الصليبية كثيرا(٥٢) :

سياسيا : ازدادت سلطة الملوك ، باشتراك عدد كبير من أمراء الاقطاع مع فرسانهم في الحروب الصليبية ، فخلا الجو للملوك ، فزادت سلطاتهم على رعاياهم ، فظهرت الممالك الأوربية الحديثة. مثل بريطانيا ، وفرنسا ، وبروسيا ، وروسيا.

إجتماعيا : اقتبس الأوربيون كثيرا من مظاهر الآداب الاجتماعية ، والأخلاق ، واللباس ، من المسلمين ، وعادوا لتطبيقها على أوربا ، كما اهتزت طبقة الاقطاعيين وأخذت تظهر طبقات أخرى ، مثل الطبقة الوسطى من التجار خاصة ، والتي دعيت بالطبقة البرجوازية.

إقتصاديا : فقد تسلم الأوروبيون زمام التجارة بأنفسهم ، وتعلموا بعض الصناعات ، وخاصة صناعة الحرير ، والزجاج ، والورق ، ونقلوا بعض أشجار الفاكهة إلى أوربا ، وتعلموا أساليب الزراعة.

علميا وثقافيا : فقد نشأت حركة واسعة في ترجمة العلوم ، والمعارف الإسلامية ، إلى اللاتينية ، بعد أن أطلع الأوروبيون على معلومات جغرافية ، وفلكية ، وتاريخية ، وزراعية ، مكنتهم من حب الاستطلاع. وباختصار فقد أحدثت الحروب الصليبية تغيرا في أوربا في مختلف نواحي الحياة ، ومجالاتها ، ونقلتها من عصر الإقطاع المظلم ، إلى عهد جديد أطلق عليه اسم : **عصر النهضة** - وحركة النهضة هذه حركة تغيير شاملة لجميع نواحي الحياة ، السياسية ، والاجتماعية ، والإقتصادية ، والثقافية في أوربا وامتدت من القرن الثاني عشر الميلادي إلى القرن السادس عشر. وابتدأت في ايطاليا لصلتها الكبيرة بالعالم الإسلامي من بقية أوروبا ، عدا أسبانيا ، والبرتغال. ويمكن تلخيص أسباب اليقظة الأوروبية في(٥٣) :

١- الروح الدافعة التي بثها الإسلام ، وحضارته ، في أرجاء العالم ، فأخذت تسري في أوصاله ، مجددة حياته وقواه ، وقد تلقفتها أوربا عن المسلمين إبان

---

(٥٢) انظر د.سعيد عبد الفتاح عاشور / أوربا العصور الوسطى ج١/٤٧٥-٤٧٧.

(٥٣) انظر فتح الله ص ٢٦.

الحروب الصليبية في الشرق ، وعن طريق الأندلس ، وصقلية ،وجنوب ايطاليا ، والجامعات الإسلامية.

٢ـ التمرد على الكنيسة الجاهلة ، ونبذ سلطانها السياسي ، والديني ، بكل ما يمثله من خطايا، واخطار ، وحجر على التفكير ، وكبت للعلم ، واضطهاد للعلماء ، باسم دين الكنيسة ، وعصمتها.

نعم أفادت النهضة الأوروبية من الحضارة الإسلامية كما تقول المصادر الأوروبية نفسها(٥٤) ، ولكنها لم تسر على الخط الإسلامي بما أفادته ، بل صبغت ذلك كله بالصبغة اليونانية ، والرومانية ، والوثنية ، فكانت حركة النهضة ردة إلى الوثنية الأولى ـ يغشيها غشاء رقيق من النصرانية ، ظل هذا الغشاء يرقّ كثيرا شيئا فشيئا ، إلى أن تمزق نهائيا في أواخر القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين للميلاد.

فصارت أوربا لذلك أعجب مركب حضاري ، أخذ من الإسلام روحه الحضارية ، ومن اليونان ، والرومان مثله وقيم حياته الجديدة ، التي قامت على أنقاض مجتمع الكنيسة ، ودينها المهزوم ، وأخذت هذه تتعامل مع العالم الإسلامي حين تمت لها الجولة ، بروح هي خليط من هذه التناقضات ، فكانت ملحدة في كل شيء ، إلا مع المسلمين ، فهي صليبية ، تتحالف فيها الدولة العلمانية مع الكنيسة ، ويقوم فيها الرجل بدور الراهب ،والمبشر ، والعالم ، والمستشرق ، والجاسوس المحترف في آن واحد أحيانا(٥٥).

٣ ـ حركة الاستعمار الأوروبي :

درج المؤرخون الأوروبيون على تقسيم العصور التاريخية إلى :

١ـ **العصور القديمة** : وتبدأ من ظهور الإنسان إلى عام ٤٧٦م وهو العام الذي سقطت فيه الامبراطورية الرومانية الغربية بسقوط عاصمتها روما بيد (ادواكر) زعيم القوط من البرابرة.

٢ـ **العصور الوسطى** : وتبدأ في رأيهم من عام ٤٧٦م وتمتد إلى عام ١٤٥٣م وهو العام الذي سقطت فيه الامبراطورية الرومانية الشرقية (الامبراطورية البيزنطية) على يد السلطان العثماني محمد الفاتح.

---

(٥٤) انظر غوستاف لوبون ـ دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي.

(٥٥) فتح الله ص ٢٧.

٣- **العصور الحديثة** : وتشمل الفترة الممتدة من عام ١٤٥٣م إلى الآن.

ويجب ملاحظة أن حوادث التاريخ متصلة الحلقات ومتداخلة ومن المستحيل فصل عصر عن عصر ،وفي فترات العصور الوسطى كانت أوربا قد تردت إلى الحضيض بل لقد عاشت في ظلام دعوه ظلام العصور الوسطى ، وفيما يلي إجمال لملامح تاريخ أوربا في هذه العصور الوسطى:

١- **سيادة نظام الإقطاع في أوربا** : لقد أدى اندفاع البرابرة من القبائل الجرمانية (القوط الشرقيين والغربيين والفرنجة والانجليز والسكسون والبيرغنديين) وانهيار الامبراطورية الرومانية الغربية إلى انعدام الأمن وانتشار الخوف والرعب والدمار والخراب ، فلجأ الضعفاء إلى الأقوياء يلتمسون الحماية ، وتنازلوا عن أرضهم وعن حرياتهم مقابل الحماية.

فنشأ مايسمى بنظام الإقطاع بقلاعه الحصينة وفرسانه. وهو نظام إقتصادي إجتماعي حربي ، يقوم أساسا على حيازة الأرض. وقد أصبح المجتمع الأوربي في ظل هذا النظام مجتمعا طبقيا على رأسه الأشراف أو النبلاء وهم السادة من مالكي الأرض ، يدعمهم الفرسان وهم من أبناء الأشراف ، وفي حضيض هذا المجتمع طبقة الأقنان وهم المزارعون - عبيد الأرض - يعيشون على الأرض ، وللأرض ، ينتقلون من مالك إلى مالك ، ومن سيد إلى سيد ، دون أن يكون لهم الخيار ، فكانت عبودية من أقسى أنواع العبودية ، في الوقت الذي كانت راية الإسلام تخفق بعزة وجلال تعيد للرقيق إنسانيته ، ويعامل المسلمون الرقيق بما أمرهم به الدين.

وكان المجتمع الإسلامي لا يؤمن بالطبقية وليست هناك حواجز بين المسلمين ، بل يشهد تاريخنا الإسلامي على أن كثيرا من العبيد ومن الطبقات الدنيا وصلوا إلى درجة الحكم أو درجة مرموقة من العلم يشار إليهم بالبنان(٥٦) . بحيث لم يكن يسمو فيه الإنسان إلا بمقدار مايتمتع به من طيب الخصال وبمقدار مايقدم لإسلامه ولمجتمعه. وكان المجتمع الإسلامي بريئا من الصراعات الطبقية شهد المساواة والأخوة.

٢- **سيادة نظام الكنيسة في أوربا** : دخل في روع النصارى أن بطرس تلميذ المسيح أسس كنيسة روما تجسيدا لمسيح دائم ، وأن بطرس هو رأس هذه

(٥٦) انظر الموالي - موقف الدولة الأموية منهم - للمؤلف.

الكنيسة ، فالكنيسة عالمية ورئيسها (أسقفها) خليفة بطرس رأس جميع الأساقفة كما أن كنيسة روما هي رأس الكنائس وأمها ، واعتقدوا أن السلطات الموعود بها القديس بطرس لاتقتصر على السلطة التعليمية بل يجب أن تمتد إلى مجال الولاية كله ، والله (كما أوحى لهم القسس) يقر في السماء مايقره بطرس أو يرفعه على الأرض من الواجبات ، وللبابا خليفته مثل ذلك الولاية الكاملة على الكنيسة كلها ، في أمور الإيمان والآداب وتنظيم الكنيسة وإدارتها ، واعتقدوا بعصمة البابا من الغلط حين يتكلم من منصة التعليم ، والأساقفة ينقلون تعاليمه، فتعاليمهم تحوي العصمة(٥٧) . فأصبح البابا والقسيس بذلك يحللون ويحرمون. وهذا ماعناه ﷺ عندما قال : « لعن الله اليهود والنصارى ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ووصل بهم الأمر أن احتجزوا ملكوت السماء لأنفسهم واحتكروه فلا يدخلون فيه إلا من رضي عنهم ورضوا عنه ، أما الآخرون فهم محرومون من الرضوان.

واتخذت الكنيسة سمة النظام الإقطاعي فتعاون الكهنوت والإقطاع لاقتسام الضرائب الباهظة التي كانت تثقل كاهل الأمم ، والحماية متبادلة والمصالح مشتركة بين حملة السوط من جانب (السادة) وحملة صكوك الغفران من جانب آخر!. وأصبحت طبقة الاكليروس ـ رجال الدين ـ من الطبقات المميزة في المجتمع الأوربي ، وامتلكت الكنيسة الأراضي الواسعة ، واحتكر البابا تفسير الإنجيل وفرض نظريات علمية خاطئة كبلت الفكر الأوربي ، واتخذ سلاح الحجر والحرمان ضد مخالفيه ومارس سلاحه الرهيب هذا على رجال الفكر والسياسة والدين ومن ثم أصبحت الكنيسة سيفا مسلطا على رجال الفكر والعلم وزيفت النظريات الجغرافية ، واجتهدت ألا تدع في العالم النصراني نابضا ضد الكنيسة وانبثت عيونها في طول البلاد وعرضها وأحصت على الناس الأنفاس. وبلغ من عاقبتهم محاكمها ثلاثمائة ألف أحرقت منهم اثنين وثلاثين ألفا أحياء كان منهم العالم الطبيعي (برونو) لقوله بتعدد العوالم وحكمت عليه بالقتل بأن لاتراق قطرة من دمه ، وكان ذلك يعني الحرق حيا ونفذ فيه الحكم. وكذلك حكمت على العالم الإيطالي (غاليليو) مخترع المنظار الفلكي بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس. هذا ماكان في أوربا في العصور الوسطى عداء بين الكنيسة

---

(٥٧) انظر الإسلام في مواجهة الحركات الفكرية ـ للمؤلف.

والعلم ، فماذا كان في مجتمع الإسلام ؟.

الإسلام يخلو من الصفة الكهنوتية ، فلا رجال دين في الإسلام ، ولا بابا ، يحللون ويحرمون ، بل هناك علماء دين وكل مسلم مسؤول عن فهم دينه والحفاظ عليه : « أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك ». فلا طبقات دينية ولا رجال دين ، ولايستطيع كائن من كان أن يحلل شيئا أو يحرم شيئا إلا بنص من قرآن أوسنة ، وكل مسؤول عن نفسه ﴿ ولاتزر وازرة وزر أخرى ﴾(٥٨) كما أنه لاخصومة بين الدين الإسلامي والعلم فقد احتضن الإسلام العلم وتحاكم إلى العقل وميز الحق بخصائصه ، وماعليك إلا أن تردد النظر في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة لترى الدليل تلو الدليل على أن الإسلام هو دين العقل والعلم والحق ، وأنه هو وحده من بين الأديان الذي عرف الفطرة وسماها باسمها ووصفها بأوصافها وشهد لنفسه أنه دين الفطرة ، بل أنه نفس الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وقد وصل المسلمون بتطبيق إسلامهم إلى أسمى الدرجات العلمية فجابوا البحار واشتغلوا بالتجارة وبالعلوم (من فقه ولغة وقرآن كريم وسنة مطهرة وفلك وجغرافيا وتاريخ ورياضيات وطب وهندسة) وبالصناعة. وكانت معامل الورق والمدارس والجامعات منتشرة في أرجاء العالم الإسلامي من الصين إلى قرطبة في الأندلس وكان العلم مفتوحا للراغب فيه دون قيد أو شرط ولهذا نبغ كثير من الأدباء والعلماء من الطبقات الفقيرة وكانت رحلات العلماء تتم بحرية بين المشرق والمغرب.

٣- **النزاع بين البابوية والامبراطورية** : فرض قسطنطين النصرانية على الامبراطورية الرومانية في مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥م ، وفرض في هذا المؤتمر مع (٣١٨) أسقفا جماعة كهنونية تلقي على الناس أوامر الدين وعليهم أن يطيعوا راغبين أو كارهين وأعلن أن تعاليم الدين لابد أن يتلقاها الناس من أفواه رجال الكهنوت ، فكان الفصل بين السلطة الدينية التي يمثلها الكهنوت وعلى رأسهم البابا ، والسلطة الزمنية التي يمثلها الامبراطور ، أو إن شئت فقل الفصل بين الدين والدولة، الدين من أفواه الكهنوت ، والدولة تطبق القوانين الرومانية الوثنية.

---

(٥٨) انظر فصل الحياة الاجتماعية من هذا الكتاب.

وانهارت الامبراطورية الغربية عام ٤٧٦م وبقي البابا فأصبح يتدخل في السلطة الزمنية ، وفي عام ٨٠٠م توج البابا «شارلمان» امبراطورا ، وتجددت الامبراطورية باسم جديد : «الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة»، وكان شارلمان قد حضر إلى روما لنجدة البابا ضد مخالفيه. واتخذ البابا قصة التتويج ذريعة واعتبر نفسه أعلى من السلطة الزمنية ، في حين اعتبر الامبراطور نفسه حاميا للسلطة الدينية فهو أعلى مستوى وأجدر بالطاعة. وظهر النزاع على تعيين الأساقفة وأصبح الصراع بين الدين والسياسة في دوامة عنيفة يتنازع البابا والامبراطور السلطة ، وكان الشعب هو ميدان الصراع وهو الضحية تارة يجذبه رجال الحكم والسياسة وتارة يخضعه رجال الدين واللاهوت وهو في حيرة من أمره ، وقد ظهر هذا التنافس على أشده في القرن الحادي عشر الميلادي وانتصرت فيه البابوية فيما يعرف بحادثة (إذلال كانوسا سنة ١٠٧٧م) ، فقد اضطر الامبراطور (هنري الرابع) أن يتقدم بخضوع وذلة نحو البلاط البابوي (البابا جريغوريوس السابع) في قلعة كانوسا شمال ايطاليا ، و لم يسمح له البابا بالمثول بين يديه إلا بعد شفاعة الرجال ، وبعد أن بقي أمام القلعة في برد الشتاء حافيا عاري الرأس لابسا الصوف ثلاثة أيام ، فغفر له البابا زلته. ولكن الحرب تجددت ، وكانت سجالا حتى ضعفت البابوية، وحل الأمر وسطا في «مؤتمر ورمز» سنة ١٢٢٢م بأن يقوم البابا بتعيين الأساقفة (رؤساء الكنائس) بحضور ممثلين عن الامبراطور. فهدأ الأمر إلى حين. فنشأ في أوربا (فكرة الحل الوسط) بالإضافة إلى اتساع الهوة بين الدولة والدين (فصل الدين عن الدولة). وكل ذلك قاد إلى فكرة فصل الدين عن الحياة نهائيا.

أين ذلك من الإسلام والمسلمين في ذلك العهد ؟ الإسلام لايفصل بين الدين والدولة وليس فيه سلطة دينية وسلطة دنيوية ـ إنه الإسلام والإسلام فقط ، فيه كل شيء من دين ودولة لا تنافر ولا فصل ، فهو عقيدة وشريعة ، نظام شامل يعالج شؤون الحياة جميعا فينظم علاقة الفرد بربه ، عن طريق العبادات ، وينظم علاقة الفرد بنفسه عن طريق الأخلاق. وينظم علاقة الفرد بالمجتمع عن طريق المعاملات ، وكلها علاقات مترابطة متآلفة متوازنة لايطغى أحدها على الآخر!

وبعد أن عرضنا حال أوربا المتخلفة في العصور الوسطى ، وحال المسلمين المتقدمة المتحضرة ، فماذا عن الصلات بين العالمين النصراني والإسلامي في تلك العصور ؟

لقد كانت هناك صلات بين العالمين غير صلات الحرب والقتال التي تكلمنا

عليها والتي سميت في وقت ما (بالحروب الصليبية) ومن وسائل الإتصالات :

أولا : المراكز الإسلامية من دار الإسلام في أوربا :

فقد كان المسلمون يسيطرون على معظم سواحل البحر الأبيض المتوسط ، أي جنوب أوربا ، فكانت بأيديهم شبه جزيرة «إيبريا» (إسبانياوالبرتغال) ، وصقلية وجنوب إيطاليا وجزر البحر الأبيض المتوسط ، وكانت هذه المراكز مراكز اشعاع للحضارة الإسلامية تنشر ضوءها على جميع الأمم النصرانية في أوربا المظلمة. هذا وقد بدأت الحروب الصليبية في هذه الأماكن والمراكز واستطاع الأوروبيون دحر المسلمين وطردهم منها بعد أن استفادوا منهم.

ثانيا : ارتياد الطلبة الأوروبيين للجامعات الإسلامية :

كانت بلاد المسلمين تشهد نهضة علمية رائعة ، وانتشرت المدارس والجامعات جنبا إلى جنب مع المسجد ، فقد كان المسجد المدرسة الأولى للإسلام فكانت الحلقات والمناظرات في الكلام والأدب والشعر والفقه والحديث تقام فيه. وكانت المكتبات والكتب توضع في متناول كل محب للإستزادة من العلم ، دون قيد ولا شرط ، ومن مراكز الثقافة الإسلامية : بخارى ، وسمرقند ، وطشقند ، وبلخ ، ونيسابور ، والري (طهران) ، وشيراز ، وأصفهان ، وبغداد ، والموصل ، والبصرة ، والكوفة ، وحلب ، ودمشق ، والقاهرة ، والقيروان ، وجامع الزيتونة في تونس ، وفاس ، ومراكش ، وقرطبة ، واشبيلية ، وغرناطة ، وباليرمو ، وباري.

وأهم المراكز الثقافية التي كان يؤمها ويرتادها الأوروبيون للعلم :

قرطبة في الأندلس ، وباليرمو في صقلية ، وباري في جنوب ايطاليا.

ففي سنة ٣٦٠هـ أم جماعة من رهبان دير ماري غالن جامعات الأندلس لدرس العربية وتحصيل معارفها ، كما أقبل الرهبان البندكتيون يطلبون العلوم الإسلامية. ومن الذين أموا هذه المدارس البابا «سلفستر الثاني» وعدد كبير من أهل ايطاليا وفرنسا وجرمانيا وانكلترا ، وكانت جامعة قرطبة من أعظم جامعات الدنيا تقرأ فيها العلوم الطبيعية والفلكية والكيماوية.(٥٩)

ثالثا : الصلات التجارية بين الشرق والغرب :

لقد نمت التجارة وازدهرت في بلاد الإسلام في العصور الوسطى ، وكان

---

(٥٩) انظر الإسلام والحضارة العربية ج١/٢٤٢-٢٤٧ وانظر دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي - د.عبد الرحمن بدوي نقلا عن صاحب صناجة الطرب في أخبار العرب ص ٤٣٣ وانظر عبد العزيز الشناوي وكتابه أوربا في مطلع العصور الحديثة

للمسلمين صلات تجارية مع معظم بلدان العالم ، وامتدت تجارتهم إلى الشرق حتى وصلت الفلبين والصين ، وإلى الغرب حتى وصلت بلاد الفرنجة ، وإلى الجنوب حتى وصلت نيجيريا والحبشةوموزمبيق ، وإلى الشمال حتى وصلت إلى بلاد الروس وسيبيريا وفنلندا ، وأصبحت المدن الإسلامية مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجاري البري والبحري ومنها : بغداد ، والبصرة في العراق ، والفسطاط ، والاسكندرية في مصر ، وسيراف ، وأصفهان في فارس ، وطرابلس وصيدا وبيروت في الشام ، والمنصورة في الهند ، واستفاد أهل دار الإسلام من التجارة فضلا عن الغنى والثروة المالية خبرة بشؤون الحياة ومعرفة بأخلاق الناس ، فكان التجار دعاة للإسلام أينما حلوا(٦٠). وعلى الإجمال فقد كان المسلمون يتحكمون في الطرق التجارية وأهمها :

١- **طريق الخليج العربي** : وتبدأ من جزر الهند الشرقية - اندونيسيا - وماليزيا إلى بحر العرب إلى مضيق هرمز إلى الخليج الغربي - ومن ثم إلى شط العرب - وبغداد - والشام - وآسيا الصغرى وأوربا.

٢- **طريق البحر الأحمر** : وتبدأ من الهند وشرق افريقيا إلى المحيط الهندي - ومضيق باب المندب - والبحر الأحمر - وخليج السويس (بحر القلزم) - وغزة والاسكندرية - ثم إلى - أوربا.

٣- **طريق البر الغربي** :

وتبدأ من حيث تبدأ طريق البحر الأحمر - وتتجه برا عبر اليمن - الحجاز - الشام - أوربا.

٤- **طريق البر الصيني** - طريق الحرير -

ويبدأ من الصين إلى الهند عن طريق ممر خيبر - وخراسان - والعراق - والشام ومصر وبلاد المغرب وأوربا.

كان المسلمون يحملون في تجارتهم هذه : البهارات والبخور والتوابل والحجارة الكريمة والذهب وريش النعام والعاج من الهند وشرق افريقيا ، واللؤلؤ من البحرين ، والمر والبخور والحجارة الكريمة من اليمن ، وغير ذلك من مواد التجارة.

وكان البنادقة والجنويون واليهود هم الذين ينقلون التجارة إلى أوربا من موانيء

---

(٦٠) انظر إن شئت كتابات ابن حوقل ، والمقدسي ، وابن خرداذبه ،والمسعودي والإدريسي ،وابن رستة ، وابن بطوطة ، وابن جبير.

الشام ومصر وآسيا الصغرى. فأثرى هؤلاء إلى جانب المسلمين. وتأثرت أوربا بهذه الصلات المباشرة والغير مباشرة وخاصة ايطاليا. فلا عجب أن بدأت النهضة الأوربية في ايطاليا.

وبهذه الاتصالات انتقلت أوربا إلى عصر النهضة الأوربية وانقشعت عن الأوربيين غيوم الخرافات(٦١) والجهل الذي كان يسيطرعلى أجوائهم. وبقيت الروح الصليبية توجههم في علاقاتهم بالمسلمين.

أدرك الصليبيون أن مهاجمة العالم الإسلامي في قلبه ، ضرب من المحال ، فبدأوا بتغيير الاستراتيجية ، واتجهوا إلى أساليب أخرى. وكانوا قد تعلموا باتصالهم بالعالم الإسلامي : البوصلة ، والاسطرلاب ، وخرائط البحار ، وكروية الأرض ، وعرفوا عن أقاليم خط الاستواء ، فمكنهم ذلك من ارتياد البحار ، وتعلموا أسلوب التجربة ، فسارت مخترعاتهم قدما ، فاستطاع (جاليليو) العالم الايطالي اختراع المنظار الفلكي ، ونادى (كوبرنيكس) بفكرة دوران الأرض حول الشمس ، وتطور البارود ، الذي شل نظام الاقطاع نهائيا ، وقضى عليه. واخترع (يوحنا غوتنبرج) الألماني الطباعة بالحروف المتحركة ، كل ذلك مكنهم من معاودة الهجوم على المسلمين بأسلوب آخر ، هو أسلوب الاستعمار الذي مر بمرحلتين :

المرحلة الأولى : الاستعمار الأوروبي القديم :

كانت حركة الكشوف الجغرافية التي تم شطر كبير منها في القرن الخامس عشر الميلادي أهم نتيجة عملية للنهضة الأوروبية ، وكان هدف الأوروبيين من هذه الحركة تحقيق أمرين :

أ- تطويق العالم الإسلامي لإضعافه تمهيدا لضربه في الداخل.

ب- البحث عن طريق تجاري لا يمر بديار المسلمين مع الهند.

وقد ساعد الأوروبيين في مهمتهم هذه ، الاسطرلاب ، والبوصلة ، والخرائط

---

(٦١) ومن هذه الخرافات أنهم كانوا يعتقدون أن الماء يغلي عند خط الاستواء ، وأن الأرض مسطحة فإذا وصل الإنسان حدها يهوي في ظلام دامس ، وأن المحيط الأطلسي - البحر المظلم - هو نهاية الأرض. ومابعد ظلام.

فعرفوا باتصالهم بالمسلمين عكس ذلك. فوجد عندهم حب الاستطلاع مع ماتعلموه من الآلات.

البحرية ، ومعرفة كروية الأرض(٦٢) ، فقد سعى البرتغاليون للحصول على علوم المسلمين الملاحية ، واستعانوا بالتجار اليهود ، في الأندلس ،الذين قاموا بدور الجواسيس ، في الحصول على معلومات المسلمين ، وتقديمها إلى أسيادهم البرتغاليين. وساعد اليهود على نجاحهم في عمليات التجسس ، معرفتهم باللغة العربية ، وقاموا برحلات بين المشرق والمغرب ، برا ، وبحرا ، لهذا الغرض ، وتظاهر بعضهم بالإسلام ، فتتابع وصول الجواسيس إلى مصر ، وسائر بلاد الإسلام ، ففي عام ٨٩٤هـ/١٤٨٨م قام جماعة من الجواسيس اليهود متخفين في زي تجار برتغاليين ، بالسفر إلى مصر سرا ، وكان على رأسهم (الفونسودي بايفا)(٦٣) ، ووقف الجواسيس على معلومات هامة ، عن كل مايتصل بتجارة التوابل ، وغيرها ، من البضائع الشرقية ، ثم أقلعوا على سفينة عربية ، من السويس إلى عدن ، ثم استقلوا سفينة أخرى متظاهرين بالإسلام ، وسافروا إلى الهند ، قبل وصول (فاسكودي غاما) إليها بنحو عشر سنوات ، وجمعوا ما راق لهم من معلومات ، ثم شدوا رحالهم إلى البرتغال ، عن طريق مصر ، وفي أثناء مرورهم بالقاهرة ، التقى هؤلاء ببعثة تجسس أخرى ، كانت تضم (أبراهام دي بيا) (ويوسف لاميجو)(٦٤) ، وهي على شاكلة البعثة الأولى ، تستهدف جمع المعلومات ، وانضمت البعثتان في بعثة واحدة سافرت إلى هرمز ،ثم زيلع ، ومنها إلى الحبشة ، ثم عادت إلى مصر ، وواصلت سفرها في رحلة العودة إلى البرتغال ، واستطاعت هذه البعثة الحصول على خرائط عربية ، عن المحيط الهندي ، ومعلومات تفصيلية ، عن التيارات البحرية ، والرياح الموسمية ، في هذا المحيط ، فضلا عن البيانات الخاصة بالتجارة الشرقية ، من حيث حجمها ، وفئاتها ، وماإلى ذلك. وقدمت البعثة كل ذلك إلى السلطات الحاكمة في لشبونة ، فكانت لهم

(٦٢) اهتم المسلمون بالجغرافيا وعلوم الملاحة لحاجتهم إليها لدينهم. فتحديد القبلة للصلاة ، وبيت الله الحرام للحج ، ومعرفة الأقاليم لتبليغ الدعوة ونشرها. وقد حث القرآن الكريم على طلب العلم ، والارتحال في سبيله ، والتبصر في آيات الله في الآفاق. فظهرت مؤلفات جغرافية تناولت : الجغرافية الكونية ، والطبيعية ، والبشرية ، والسكانية ، والبحار والمحيطات ، والمواصلات ، والجغرافيا العامة ، والرحلات ، والمدن ، والأمصار ، والجغرافيا الفلكية .. وظهر علماء في الجغرافيا كالبلخي ،والبكري ، والهمذاني ، واليعقوبي ، والمسعودي ، والقزويني ، وابن حوقل ، والادريسي ، والمقدسي ، والبيروني ، وابن جبير ، وابن بطوطة وغيرهم.

(٦٣) د. عبد العزيز الشناوي / أوربا في مطلع العصر الحديث ص ٩٧.

(٦٤) د. عبد العزيز الشناوي / أوربا في مطلع العصر الحديث ص ٩٨.

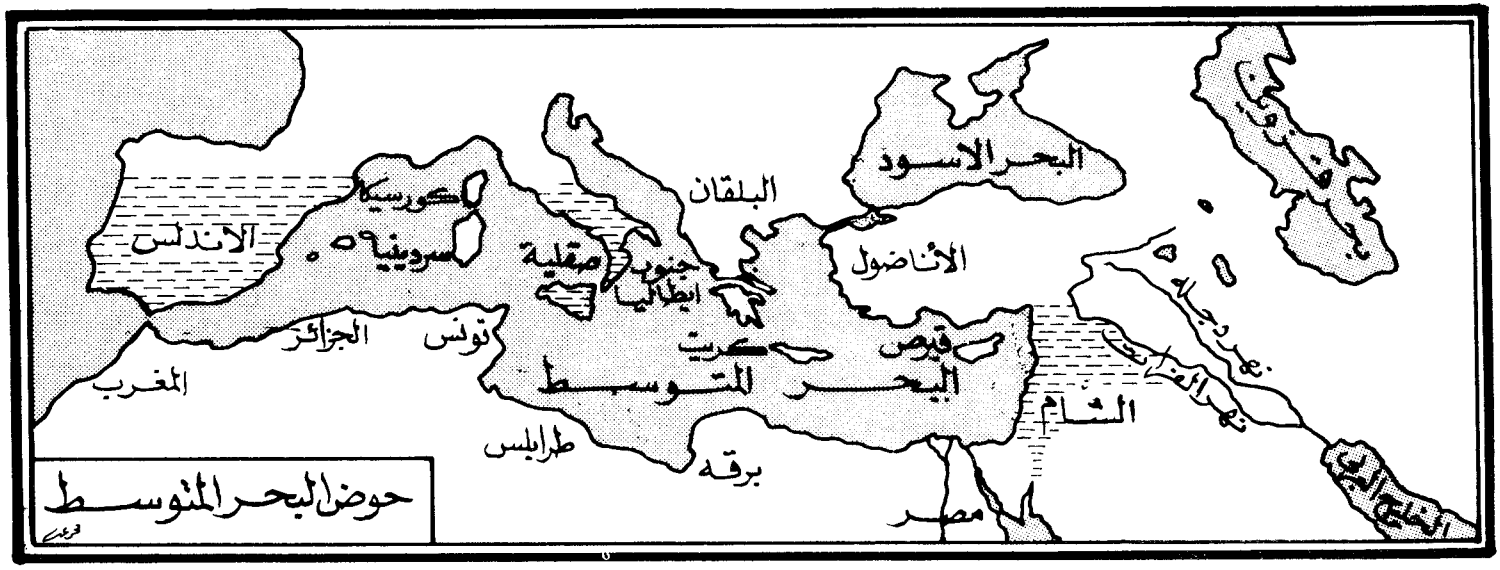

مراكز انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا

نعم المعين ، في تقدير الموقف ، والمضي قدما في إيفاد البعوث الكشفية الجغرافية ، ابتغاء الوصول إلى الهند بحرا. فتمكن (بارثلميودياز) من الوصول إلى رأس الرجاء الصالح (جنوب افريقيا) ، وأتم (فاسكودي غاما) ، بمساعدة العالم المسلم (أحمد ابن ماجد) الرحلة ، فوصل البرتغاليون إلى كاليكوت (فاليقوط) في الهند ، وأخذوا يقيمون المراكز ، والحصون ، والقلاع ، على السواحل الافريقية والآسيوية ، لبسط سيطرتهم العسكرية والتجارية ، على هذه المنطقة ، وهزموا أسطولا إسلاميا ، ضم سفنا من المسلمين في الهند ، ومن دولة المماليك في مصر والشام ، ومن الدولة العثمانية في آسيا الصغرى والبلقان **٩١٥هـ/١٥٠٩م** ، في معركة (ديو) شمالي بومبي بالهند(٦٥) : فتأكدت سيادة الصليبيين على البحار وانحسرت قوى المسلمين في المحيط الهندي. وكانت رحلة فاسكودي جاما صليبية واضحة ، تتخفى وراء العلم والاستكشاف. فقد قال عندما وصل كاليكوت (فاليقوط) بمساعدة أحمد بن ماجد : « الآن طوقنا رقبة الإسلام ، ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق »(٦٦)

وتمكن (خريستوفر كولمبوس) الجنوي الأصل -(**٨٥٥-٩١٢هـ/١٤٥١-١٥٠٦م**) - من الوصول إلى جزر البحر الكاريبي ، ظانا أنها جزر الهند لصالح أسبانيا ، وذلك لفكرة سيطرت عليه ، وهي : أنه إذا أبحر غربا من مضيق جبل طارق ، وعبر المحيط الأطلسي ، استطاع أن يصل إلى الشواطيء الشرقية لآسيا(٦٧). وبالفعل وصل إلى جزر البحر الكاريبي ، سنة **٨٩٨هـ/١٤٩٢م** وعرف «أمريكو فسبوتشي» أنها أراض جديدة ، فسميت باسمه أمريكا عام **٩٠٧هـ/١٥٠١م**(٦٨).

لقد حملت الاكتشافات الجغرافية الروح الصليبية ، بما فيها من حقد ، وكراهية ، على الإسلام ، والمسلمين ، تمثل ذلك في آراء البابا (نيقولا الخامس)- (**٨٥١/٨٦٠هـ**)(**١٤٤٧/١٤٥٥م**) - الذي وضع خطة تنفذ مع الكشوف الجغرافية ، لضرب المسلمين ضربة أخيرة ، والقضاء على الإسلام قضاء مبرما ، وأرسل في سنة (**٨٥٩هـ/١٤٥٤م**) إلى ملك البرتغال ، مرسوما بابويا تضمن ما يعرف باسم : (خطة الهند) تقوم على إعداد حملة صليبية نهائية ، تشنها أوربا

(٦٥) فتحي غيث ص ١٤٤.

(٦٦) محمد قطب - واقعنا المعاصر ص ١٨٩.

(٦٧) أوربا في مطلع العصر الحديث ص ١٠٤.

(٦٨) نفسه ص ١١٠.

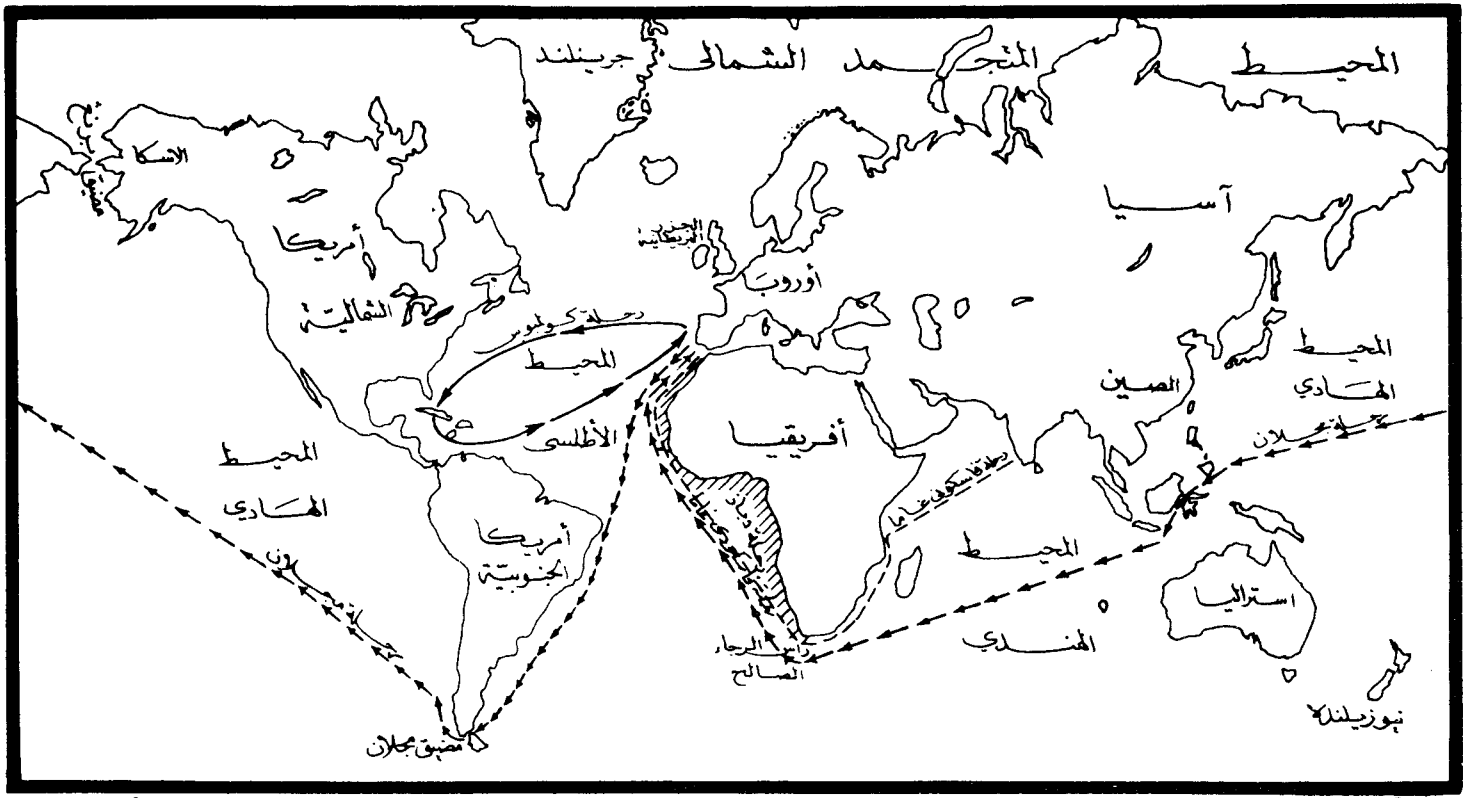

الأكتشافات الجغرافية الأوروبية وتغير طرق التجارة الى البحار الكبرى

الكاثوليكية ، للقضاء قضاء مبرما على الإسلام ، بعد أن تحقق كشوف البرتغاليين أهدافها ، ويتصلون بالملوك النصارى ، سواء في أفريقيا ، أو آسيا ، كي يسهم هؤلاء الملوك في تمويل الحملة الصليبية بالأموال ، والرجال ، والعتاد ، ويتم تطويق البلاد الإسلامية(٦٩).

وتمثلت هذه الروح الصليبية في (هنري الملاح) أمير البرتغال ، وفي القائد البرتغالي (البوكرك) الذي كان يعمل بهمة ، ونشاط ، للاستيلاء على جميع النقاط الاستراتيجية ، حتى يمهد للاستيلاء على مكة ، ومصر ، وبيت المقدس ، من المسلمين. وبالرغم من ضخامة هذه الآمال ، فإنها تدل على مغزى كبير ، وهو : أن قادة البرتغال ، كانت تحركهم الأفكار الصليبية ، واعتبروا أنفسهم مكلفين بالثأر للحملات الصليبية الفاشلة ، وحملوا لواء الأهداف ، التي عجز عن تحقيقها ملوك أوربا الصليبية السابقين(٧٠). وهذه الروح هي التي دعت القائد البوكرك أن يقول لرجاله قبل احتلاله ملقا عام ٩١٧هـ/١٥١١م :

« أجل خدمة لخضد شوكة الإسلام ، بحيث لايقوم له قائمة بعد اليوم بعملنا هذا ، وأنا علي يقين ، أننا إذا انتزعنا الأفاويه ، والبهارات ، من يد العرب ،فإن الدمار سيحل بالقاهرة ، ومكة. وستتوقف تجارة البندقية مع العرب»(٧١).

وقال في يومياته :

« فكان هدفنا الوصول إلى الأراضي المقدسة للمسلمين ، واقتحام المسجد النبوي ، وأخذ رفاة النبي محمد ﷺ رهينة لنساوم عليه العرب ، من أجل استرداد القدس ، وكان هدفنا الثاني : احتلال جنوب مصر ، من أجل تغيير مجرى نهر النيل كي يصب في البحر الأحمر ، بدلا من مروره على القاهرة في طريقه إلى البحر المتوسط ، مما يضمن لنا خنق القلب الذي يقود الحرب ضدنا »(٧٢).

وأما فرديناند وايزابيلا ملكا اسبانيا فقد غلب عليهما العداء للإسلام ، والمسلمين ، وشنا حربا لا هوادة فيها على البقية الباقية من المسلمين في شبه جزيرة أيبريا ، إلى أن نجحا في القضاء على آخر معقل إسلامي هناك ـ غرناطة ـ (٨٩٨هـ/١٤٩٢م) .وكانا يمنيان النفس ببعث عهد الحروب الصليبية ، وإنفاذ

---

(٦٩) أوربا في مطلع العصر الحديث ص ٦١.

(٧٠) فتحي غيث ص ١٤٤.

(٧١) أنور الجندي ـ الإسلام والحضارة ـ ص ٦٥.

(٧٢) نجيب صالح ص ١٢٧.

حملة ، لانتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين(٧٣). وأما كولمبوس الذي عمل لحسابهما ، فكان على طرازهما ، وطراز هنري الملاح ، تبرز فيه الناحية الصليبية ، فقد رسمت الصلبان على أشرعة السفن ، التي أقلته في رحلاته ، وكان يتوق لرفع الصليب عاليا في أراضي (خان الكبير) في الصين ، وتحويل ملايين الوثنين إلى النصرانية ، ولكنه شجع تجارة الرقيق ومارسها(٧٤).

وبعد : **فماذا كانت نتيجة هذه الكشوف الجغرافية على بلاد الإسلام ؟**

لقد تغيرت طريق التجارة عن بلاد الإسلام ، والبحر الأبيض المتوسط ، إلى المحيطات الكبرى ـ الأطلسي ، والهندي ، والهادي ـ فأدى ذلك إلى ضعف تجارة المسلمين ، ثم ضعف الصناعة ، والزراعة ، فقد هجر الناس المدن إلى الأرياف ، وعاد الكثير منهم إلى البادية ، فكسدت البضاعة ، وخوت الأسواق ، وقل عدد سكان المدن ، فأصبحت قرى ، الأمر الذي أدى مع الزمن إلى عزلة المسلمين ، وإلى شيوع الجهل ، والتأخر ، والأمية.

وأما من الناحية العسكرية ، فقد طمع الصليبيون بعد أن أحاطوا بالعالم الإسلامي ، بوصول «مجلان» إلى الفلبين شرقا ، ملتقيا النفوذ الاسباني بالبرتغال في أقصى المشرق من العالم الإسلامي ، فحاولت إسبانيا ، وفرنسا ، والبرتغال من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الاتصال مع الحبشة الأرثوذكسية ، للقيام بغزو بحري إلى كل من عصب ، ومصوع ، وسواكن ، على أمل غزو الحجاز ، وهدم قبر الرسول ﷺ ، وبالفعل قامت البرتغال بحملة دخلت البحر الأحمر ، ووصلت إلى ينبع ، وتحطمت أثر عاصفة هوجاء ، وأمام هذا التحدي الصليبي ، عجز المماليك عن المواجه ، فتوجه السلطان سليم العثماني إلى الشام (٩٢٢هـ/١٥١٦م) ، فضمها إلى الدولة العثمانية ،ثم ضم مصر عام (٩٢٢هـ/١٥١٧م)(٧٥) ، وامتدت الدولة العثمانية وانتصبت ترد كيد الصليبيين ، ولكن دون أن تستيطع استعادة سيطرة المسلمين على البحار ، خلا البحر الأبيض المتوسط ، ولكنها استطاعت أن تمنع الصليبيين من مهاجمة قلب ديار الإسلام ، وشمال أفريقيا ، وتولت أمر الخلافة والدولة ، فكبحت جماح رغبة الصليبيين الشريرة ، وامتدت في أوربا ، مما دفع الصليبية إلى مواقف الدفاع ، لفترة طويلة أمام الدولة العثمانية.

---

(٧٣) أوربا في مطلع العصر الحديث ص ١٠٥.

(٧٤) نفسه ص ١٠٩.

(٧٥) د. علي حسون ـ الدولة العثمانية ص ٤٨.

ونتج عن حركة الكشوف الجغرافية : إكتشاف العالم الجديد ، واستيطانه ، في حركة سميت : الاستعمار الأوربي القديم ـ واتبعت أوربا الغربية أسلوب إبادة السكان ، أو تهجيرهم ، أو الاختلاط بهم ، بعد إذلالهم ، وفصلهم عن ماضيهم نهائيا ، كما حصل في الامريكتين ، واستراليا. وأصبح العالم الجديد امتدادا لأوربا ، ومتنفسا لها ، وظهيرا ، في مواجهة الإسلام.

كما حقق الصليبيون رغبتهم ، وأهدافهم ، في تطويق العالم الإسلامي ، وتحويل طرق التجارة عن بلاد الإسلام ، وتسلم زعامة البحار ، وتدفق الذهب ، والفضة ، وغيرهما من المعادن النفيسة إلى أوربا ، وأدخلت تحسينات على بناء السفن التجارية ، من الحجم ، والحمولة ، والسرعة ، ومتانة الأجسام ، وطرأ تقدم كبير على عدد لايستهان به من العلوم الجغرافية ، والفلكية ، والتاريخية ، فدخلت أوربا عصرا عرف في التاريخ الإقتصادي باسم : (**الثورة التجارية**)(٧٦). التي أدت بدورها إلى ظهور الطبقة البرجوازية في أوربا (الطبقة الوسطى). وبدأت تقود حربا شعواء ضد الكنيسة وتسلط البابا ورجال الدين في حركة دعيت (**حركة الإصلاح الديني ـ أو حركة الإنشقاق الديني**) :

إذ زادت مساويء الكنيسة مع بداية حركة النهضة الأوروبية ، واشتد عسف رجال الدين ، وتحكمهم في عقول الأوروبيين. وكان البابا قد احتاج لنفقات كثيرة في تزيين (فرسكة) كنيسة القديس بطرس (الفاتيكان) ، فابتكر وسيلة لجمع المال وهي : (**بيع صكوك الغفران**) التي حولت أمر الدين النصراني إلى مهزلة حقيقية.

فتحرك بعض المفكرين وشكوا في عصمة البابا والأساقفة.

فظهر **مارتن لوثر** في ألمانيا (**١٤٨٣ـ١٥٤٦م**) وانتقد صكوك الغفران. وحرمه البابا ، فأسبغ عليه أمير سكسونيا حمايته ، وأقام في قلعته ، وترجم الإنجيل إلى الألمانية ، ونشره ، وأظهر مفاسد الكنيسة. فسمى أتباعه : **البروتستت** (المحتجون).

ومما يدل على تأثر لوثر بالفكر الإسلامي فكرته التي نشرها : (لاخلاص إلا بالإيمان). وقوله : « ليس للبابا وحده حق احتكار تفسير الإنجيل »

---

(٧٦) أوربا في مطلع العصر الحديث ص ١٢٥.

وظهر **كلفن** في فرنسا (**١٥٠٩-١٥٦٤م**) وسمي أتباعه : (الهيجونوت). كما انفصلت الكنيسة البريطانية ودُعيت (**الانجيليكانية**). وكان قد قام (زونجلي) (**١٤٨٤-١٥٣١م**) بحركة ضد الكنيسة الكاثوليكية في الأراضي المنخفضة ، وانتهى أمرُه بمصرعه في معركة كابل عام **١٥٣١م** وقُطعت جثته ، ثم حُرق.

وعلى كلّ فقد أصبحت أوربا الصليبية في الغرب دينيا كما يلي :

١- **الكاثوليك** : وهم أتباع البابا في فرنسا ، واسبانيا ، والبرتغال ، وإيطاليا ، وألمانيا.

٢- **البروتستنت** : وهم الذين خرجوا على كنيسة روما ومنهم :

أ- **اللوثريون** : في ألمانيا ، واستكندناڤيا (السويد ، والنرويج).

ب- **الكلفنيون** (**الهيجونوت**) : في فرنسا ، والأراضي المنخفضة (هولندا ، وبلجيكا ، ولكسمبورغ ، والدانمارك).

ج- **أتباع الكنيسة الانجيليكانية** في بريطانيا.

وقد أعقب هذا الإنقسام صراع ديني مرير ، استعمل فيه البابا سلاحا رهيبا وهو : **ديوان التفتيش** (أو محاكم التفتيش أو التحقيق) منذ عام **١٤٧٨م** لمواجهة المنشقين.

وتمت مذابح دينية مرعبة من أشهرها مذبحة القديس (بارثلميو) عام **١٥٧١م** في فرنسا. حيث قضي فيها على الهيجنوت تماما في فرنسا. فهاجر البوير على أثر ذلك إلى جنوب افريقيا وأقاموا كيانا عنصريا لايزال يعيش هناك.

وانزوى الدين عند الأوروبيين إلى الكنيسة وإلى يوم الأحد ، وقد سايرت الكنيسة هذا الاتجاه تبعا للقاعدة التي سادت حياة أوربا : (**الغاية تبرر الوسيلة**).

وقد واجه المسلمون الأمرين في أوربا. فأزيلوا تماما من أوربا الكاثوليكية : اسبانيا والبرتغال وفرنسا وايطاليا والعالم الجديد(٧٧). وتعرضوا لأبشع عمليات الإبادة التي عرفها التاريخ.

المرحلة الثانية : الاستعمار الأوروبي الحديث (الامبريالزم) :

وقام على استغلال خيرات البلاد المستعمرة (بفتح الميم) ، واستعباد سكانها ، والسيطرةعلى مقدراتها.

وقد نتج هذا الاستعمار عن حركة في أوربا تسمى : حركة **الثورة الصناعية**

---

(٧٧) انظر تفاصيل ذلك إن شئت : عبد العزيز الشناوي - أوربا في مطلع العصور الحديثة ، عاشور : أوربا العصور الوسطى. ول ديورنت - قصة الحضارة.

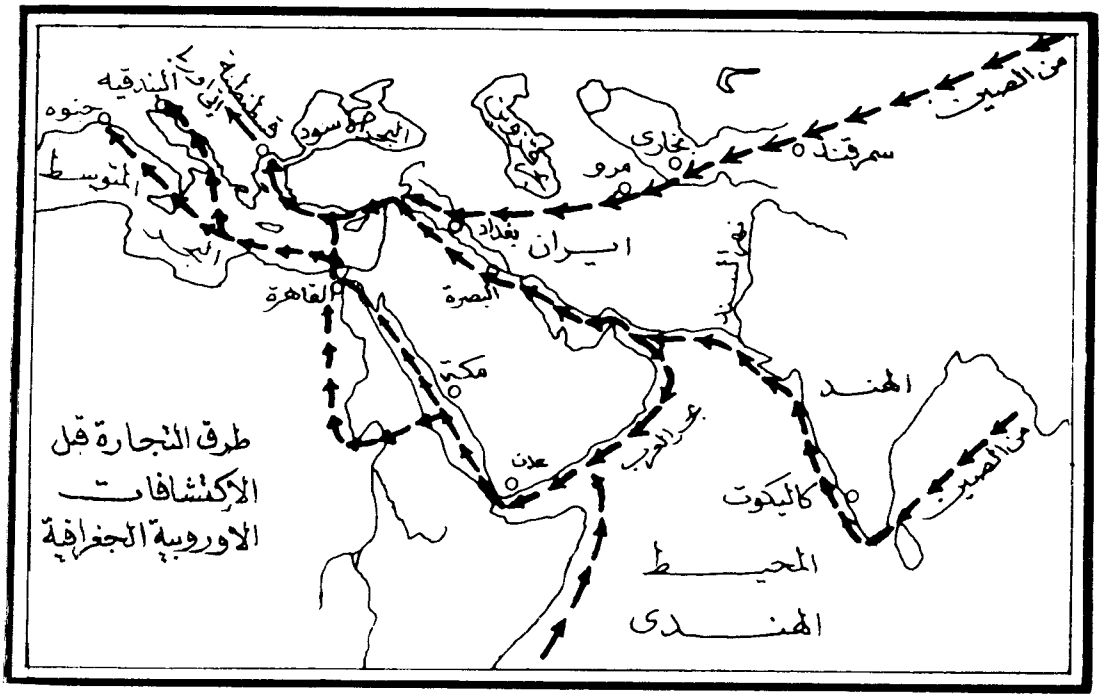

أو (الانقلاب الصناعي) : وهي عبارة عن سلسلة من التغييرات في أساليب الصناعة ، أصبح الإنسان بسببها يعتمد على الآلات في انتاج مصنوعاته.

وصارت هذه الآلات تدار بقوى غير بشرية ، سخرها الإنسان أو اخترعها كالبخار ، أو البترول ، أو الكهرباء ، وحديثا بالطاقة الذرية. وقد بدأت هذه الثورة في بريطانيا في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي ، واستمرت بعد ذلك وانتشرت في أوربا ، وأمريكا ، منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي ، وزاد الانتاج الصناعي زيادة هائلة ، بقليل من النفقات ، فاحتاج أصحاب المصانع إلى المواد الخام ، والقوى المحركة ، وإلى الأسواق لتصريف البضاعة ، فتم استغلال الفحم في أوربا ، واستخدم في استغلاله الأطفال والنساء ، كما استخدموا في المصانع ، فأدى ذلك إلى انحطاط الأخلاق وانتشر الفساد الخلقي ، كما انتشرت عادة شرب الخمر ، ولعب الميسر ، وغيرهما من المفاسد الخلقية ، واخترعت السكك الحديدية ، لنقل المواد الخام ، ولتصريف البضائع ، وظهرت طبقة تحتكر المصانع ، ازداد مالها زيادة فاحشة سميت **بالطبقة الرأسمالية** التي أصبح همها جمع المال وبأي وسيلة ، وبالتنافس الحر دون قيد من دين أو تقاليد ، الأمر الذي

أدى إلى بؤس العمال في أوربا ـ وظهرت طبقة العمال الكادحة من عمال المناجم والمصانع. وأمام هذه التعاسة التي وقع فيها المجتمع الأوروبي ظهرت أفكار بشرية للإصلاح ولتحسين أوضاع العمال والنساء والأطفال. وحصل العمال على بعض الحقوق مثل : زيادة الأجور ، وتحديد ساعات العمل ، والإجازات الأسبوعية والسنوية والمرضية ، والتعويض عند الضرر ، والتأمين عند الشيخوخة والمرض المزمن وماإلى ذلك .. كما ظهرت فكرة تحرير المرأة ومساواتها بالرجل في الأجر ، وستتطور الفكرة لتأخذ أبعادا خطيرة. كما ظهرت قوانين حماية الأطفال ! ونشأت في أوربا تبعا لذلك فكرتان متباعدتان متحدتان في المنشأ هما : الإشتراكية والديمقراطية ، وهما على طرفي نقيض ، تقوم علاقاتهما على التناقض والصراعات.

والرأسمالية دفعت الحكومات الأوربية دفعا لحركة الإستعمار، للحصول على المواد الخام ، وإيجاد الأسواق لتصريف بضائعها ، فتنافست الدول الأوربية في البحث عن مستعمرات ، فكان العالم الإسلامي هدفا من أهدافهم ـ تحركهم ضده الخلفية الصليبية. ولذلك فالاستعمار الأوربي حلقة جديدة ومرحلة متصلة بالحروب الصليبية القديمة ، وآية ذلك أن (اللورد اللنبي) القائد الانجليزي ، بعد أن دخلت قواته القدس سنة **١٣٣٧هـ/١٩١٨م** قال كلمته المشهورة الموحية بهذا المعنى : « الآن انتهت الحروب الصليبية ».

وقد مهدت طوابير المبشرين (المخربين) والمستشرقين لحركة الاستعمار واتخذ الاستعمار الحديث أشكالا متعددة ، ولبس لبوسا متنوعة منها: الاحتلال العسكري ، والاستعمار الإقتصادي عن طريق الشركات ، وربط العملات المحلية بعملات الدولة المستعمرة ، والقروض والمساعدات وإقامة المشاريع. والمعاهدات غير المتكافئة بين الدولة المستعمرة القوية والدولة المستعمرة الضعيفة فتكون المعاهدة بالطبع في صالح الدولة القوية. والحماية والانتداب والوصاية. وأما أهم أنواع الاستعمار الحديث والمعاصر وأدومها أثرا فهو الاستعمار الفكري الذي لايزال العالم الإسلامي يعاني منه ويعيش فيه.

وقد تنافست الدول الأوربية في استعمار العالم الإسلامي ، وعلى الأخص بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا. ولقد اختارت فرنسا ، وبريطانيا لتوسعهما الاستعماري هذا ، ولفرض سلطتهما ، على المستعمرات نظام الحماية ، حتى لايثير احتجاج الدول الأخرى نتيجة لتغييرهما الأوضاع الدولية في بلاد الإسلام ، وحتى تموهان على أبناء البلاد بأنهما لاتريدان ضم بلادهم ، أو النزول بها إلى مستوى

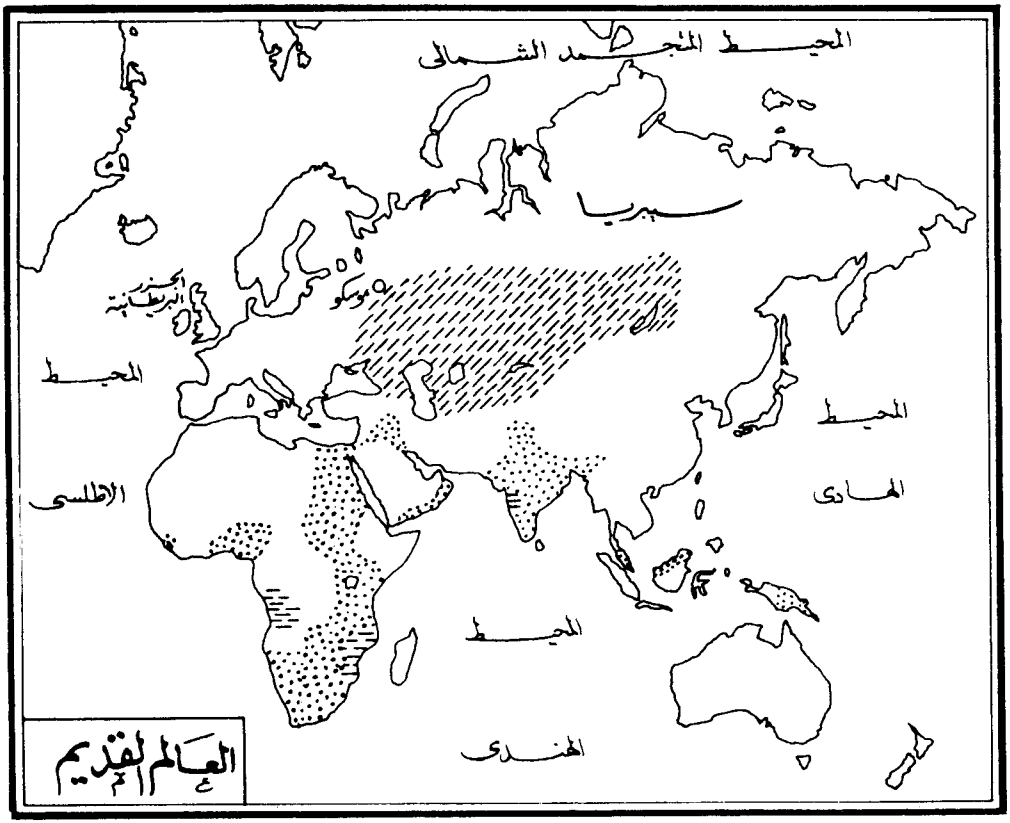

المستعمرات الانجليزية في العالم الاسلامي ▨ المستعمرات الروسية في العالم الاسلامي ▤ المستعمرات البرتغالية في العالم الاسلامي

المستعمرات ، وحتى تحملان البلاد نفقات قوات الاحتلال ، ونفقات الإصلاحات ، التي تشيران بها عليها. وحتى تظهران أمام المعارضة في بلادهما بأنهما نزلا إلى عملية تضمن لهما المكاسب المادية ، والعسكرية ، والمعنوية ، دون أن تكلفهما الأموال ، والتضحيات ، فضمنتا بهذا النظام الحصول على كل امتيازات الدولة المستعمرة ، والسيطرة على الامكانيات المادية ، والبشرية ، والاستراتيجية ، وكأنهما تتعاونان مع السلطات الوطنية في ذلك.

ورغم أن معاهدات الحماية تظهر وكأنها قد عقدت بين طرفين متساويين ، إلا أن الضغط العسكري الذي يصحب هذا التوقيع ،وسيطرة الدولة المستعمرة ، وإشرافها على الشئون العسكرية ، والعلاقات الخارجية للقطر ، تظهر الأمر على حقيقته ، وتحتل فيه الدولة المستعمرة جميع الوظائف العليا ، وخاصة وظائف مديري المصالح ، مثل الاشغال ، والمعارف ، والصحة ، والمالية ، بل يصبح لهم

حق إصدار القرارات الوزارية ، الأمر الذي يؤدي إلى سرعة ، وقوة استغلال المستعمرين لامكانيات القطر ، نظرا لأن رعايا الدولة المتفوقة في البلاد يمنحون الحماية اللازمة للقيام بعملياتهم ، وعضدهم أمام أي منافسة يقوم بها أي مواطن لدولة أخرى ، وتظهر عمليات الاستغلال الاستعماري هذا في شكل شركات رأسمالية كبيرة ، تقوم باستغلال ، واستعمار مساحات واسعة من الأرض ، وبشكل يهدف الإستغلال الرأسمالي ، أكثر مما يهدف التوطين ، كما تمكنوا من استغلال الثروة المعدنية.

كذلك اتبعت بريطانيا وفرنسا أسلوب الوصاية والانتداب بعد الحرب العالمية الأولى لتكتسب الشرعية في تنفيذ مخططاتها في البلدان المستعمرة.

وأما روسيا فبقيت تستعمل الأسلوب القديم ـ الاستيطان في بلاد الإسلام مع بعض التغيير في الأسلوب.

وفيما يلي الدول الأوروبية التي سيطرت على العالم الإسلامي :

١ـ **بريطانيا** : واستعمرت ماليزيا ، وشبة جزيرة الهند ، وسواحل الخليج العربي ، والجنوب العربي ، ومصر ، والسودان ، وأوغنده ، وجزءا من الصومال ، واريتريا ، وتنزانيا ، ونيجيريا ، وقبرص ، وغانا. كما استعمرت بعد الحرب الأولى: العراق وشرقي الأردن وفلسطين. وغيرها.

٢ـ **فرنسا** : واستعمرت الهند الصينية ، ومالي ، وتشاد ، والنيجر ، والسنغال ، ومدغشقر (مالاغاش) ، وموريتانيا ، والمغرب ، والجزائر ، وتونس ، وغينيا ، وجيبوتي. وبعد الحرب الأولى استعمرت سوريا ، ولبنان ،وكيليكيا.

٣ـ **ايطاليا** : واستعمرت : ليبيا ، وجزءا من الصومال ، وأرتيريا.

٤ـ **روسيا** : واستعمرت : سيبيريا ، وتركستان الغربية ، والأراضي الإسلامية في آرال ، وحوض نهر الفلغة ، وشبه جزيرة القرم ، وبلاد القفقاس (القوقاز). وامتدت بنفوذها إلى شمالي إيران.

٥ـ **أسبانيا** : واستعمرت : الريف المراكشي ، واقليم افني ، والصحراء المغربية. وإقليم مورو الإسلامي في الفلبين.

٦ـ **هولندة** : واستعمرت : جزر الهند الشرقية (اندونيسيا).

٧ـ **البرتغال** : واستعمرت :موزمبيق.

٨ـ **بلجيكا** : واستعمرت : الكونغو في أواسط أفريقيا.

وفي الوقت الذي بدأ فيه الاستعمار الأوروبي يكيل الضربات على العالم

الإسلامي ، كانت كبرى دول الإسلام هي(٧٨) :

١ـ **الدولة العثمانية** : في الأناضول والعالم العربي والبلقان وهي دولة الخلافة.

٢ـ **الدولة الفارسية** : في إيران وهي شيعية.

٣ـ **الدولة المغولية** : في الهند.

وكان الصراع قائما بين الدولة العثمانية والفارسية والمغولية ، واستغلت ذلك بريطانيا إلى أقصى حد ، فأيدت الفرس في صراعها مع الدولة العثمانية ، ففتحت فارس أبوابها للنفوذ الأجنبي مبكرة ، واتخذت من ذلك ركيزة وقاعدة لحماية الهند (درة التاج البريطاني).

وأما الدولة المغولية فكانت دولة محلية لم تلعب دورا خارج شبه القارة الهندية ، فلم تعرف ألاعيب السياسة الاستعمارية ، فوقعت صريعة أمام المخططات الإنجليزية. ووقفت الدولة العثمانية وحدها تصارع هذه القوى العاتية إلى أن انهارت ، وضعفت تحت مطارقها ، وتمزقها في الداخل.

وظهر الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ـ١٩٤٥م) بأساليب جديدة بالابتعاد عن العنف ، والقوة السافرة، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولجأ إلى التلون حسب الملابسات الزمنية ، والأوضاع الاجتماعية ، للبلاد التي يزحف إليها ، معتمدا على الخديعة ، والدس ، والتآمر ، لتحقيق مآربه ، وتسلم زعامة الاستعمار في هذه الفترة **الولايات المتحدة الأمريكية** ، **والإتحاد السوفيتي** متبعا وسائل العمل غير المباشرة وذلك:

ـ عن طريق غزو الشعوب والسيطرة عليها من الداخل. فاستخدم الانقلابات العسكرية ، والدعوة إلى الاشتراكية. بل إن أمريكا عملت على إيجاد أنظمة حكم تعارضها معارضة معتدلة(٧٩).

ـ وعن طريق التكتلات الإقتصادية الاحتكارية.

ـ وعن طريق الحرب الباردة.

فلجأ إلى :

١ـ إقامة القواعد العسكرية في البلاد ، تحت ستار المعاهدات غير المتكافئة ، بحجة الدفاع عن السلام العالمي ، أو للحماية. ولاتلبث البلاد أن تجد نفسها مكبلة بتلك القواعد التي تنطلق منها قوى العدوان في أي وقت.

---

(٧٨) انظر أنور الجندي ـ العالم الإسلامي والاستعمار ص ٣٨٦.

(٧٩) برنارد لويس ـ الغرب والشرق ص ١٩٥.

٢ـ عقد الأحلاف وجر البلاد إليها ، وعن طريقها تحرك البلاد الضعيفة الداخلة في نطاق هذه الأحلاف حسب هواها ، وبما يحقق المصالح الاستعمارية فحسب.

٣ـ فرض السيطرة الإقتصادية عن طريق إدخال البلاد في نطاق عملة البلد المستعمر ، ومايستلزمه ذلك من خلق جهاز مصرفي يحقق التبعية الإقتصادية للبلد المستعمر.

٤ـ تقديم المعونات المشروطة للبلاد لتبقى البلاد مكبلة بمحض إرادتها لما يريده الاستعمار الجديد من ضغط وإزهاق.

٥ـ عرض المساعدات الفنية غير البريئة ، عن طريق استغلال الاستعمار الجديد لحاجة البلاد النامية إلى تلك المساعدات. فيبدأ بمديد المساعدة الفنية ، حتى إذا ما اطمأنت البلاد المحتاجة إلى تلك المساعدة ورتبت حياتها على ذلك يفاجئها الاستعمار بطلباته ، أو بوقف تلك المساعدات ، أو يعرقلها ، وعندئذ لاتجد الضحية من سبيل غير الاستسلام لهذا الاستعمار الجديد. وقد أجادت الولايات المتحدة هذه اللعبة لتصفية النفوذ البريطاني والفرنسي نهائيا بعد أن أنهكتهما الحرب العالمية الثانية (**١٩٣٩ـ١٩٤٥م**) وكانتا بحاجة إلى المساعدة. فطلب (ترومان) عام **١٩٤٧م** من الكونجرس الأمريكي الإذن بمساعدة اليونان وتركيا ، حيث أن انجلترا لاتستطيع الاستمرار في مساعدتهما ، بحجة الخطر الشيوعي ، ثم توسعت المساعدات الأمريكية فشملت إيران(٨٠) ، وكثيرا من أقطار العالم الإسلامي.

٦ـ إقامة الدولة اليهودية الصهيونية في فلسطين : وإمدادها بالرجال من روسيا ، وبالأموال والأسلحة من أمريكا ، لتبقى الذراع الطويلة التي تهدد العالم الإسلامي ، فلا تجد الأقطار الإسلامية مناصا من أن تلجأ إلى أحد المعسكرين ،وهما وجهان لعملة واحدة(٨١).

٤ـ الحركة الصهيونية :

من جراء الثورة الصناعية في أوربا ،انتقلت المصانع من البيوت ، إلى المؤسسات الكبيرة ، التي تحتاج إلى أموال هائلة ، فاستغل ذلك اليهود الذين كانوا يملكون المال ، فبرزت البيوتات المالية اليهودية الكبيرة ، وفي مقدمتها بيت أسرة (روتشيلد) ، وأصبح زعماء اليهود يؤثرون تأثيرا كبيرا في العلاقات الدولية ، لأنها

---

(٨٠) برنارد لويس ـ الغرب والشرق ص ٢٠١.

(٨١) جريدة الشرق الأوسط ـ شجون عربية ـ علاقات موسكو وتل أبيب / ص٢ السبت ١٤٠٦/٢/١٩هـ/١٩٨٥/١١/٢م.

هي التي تحرك الصناعة ، وتستغل الحكومات ، في البحث عن مستعمرات فنشأت الفكرة الصهيونية في أحضان الاستعمار ، وولدت في فراشه. وأصبحت تمثل بعدا جديدا للاستعمار ، والغزو الغربي ، المتطلع للسيطرة والنفوذ في العالم الإسلامي. وقد حاولت الصهيونية منذ قيامها كحركة منظمة ، أن تضمن التحالف ، والارتباط بالدول الاستعمارية في العالم (فرنسا ، وألمانيا ، وبريطانيا، والولايات المتحدة)(٨٢).

والصهيونية حركة سياسية عنصرية دينية ، قام بها أصحابها في مواجهة التحديات ، والأخطار ، التي واجهت اليهود في أوربا تحت ظل فكرة القوميات ، فهي تهدف إلى جمع الملايين من اليهود في العالم في كيان يهودي قومي (في فلسطين) استنادا إلى مزاعم تاريخية ودينية تربطهم بها ، واتخاذ فلسطين نقطة انطلاق لدولة كبيرة تمتد من الفرات إلى النيل(٨٣) ، ومن ثم تكوين امبراطورية صهيونية عالمية تكون وريثة للحضارة الغربية.

واعتبرت الصهيونية اليهود قومية بدون وطن ، وحملت أمم العالم مسئولية إيجاد هذا الوطن ، واختارت فلسطين لذلك(٨٤). وقد أخذوا فكرتهم العنصرية من التلمود ثاني الكتب المقدسة عند اليهود بعد التوراة المحرفة ، الذي يدعوهم إلى التعالي على غيرهم فهو يقول : « الشعب المختار فقط يستحق الحياة الأبدية ، وأما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير ».

أيها اليهود : إنكم من بني البشر لأن أرواحكم مصدرها روح الله ، وأما باقي الأمم فليست كذلك ، لأن أرواحهم مصدرها الروح النجسة ».

ويقول : « سلط الله اليهود على أموال باقي الأمم ودمائهم ، فالله لايغفر ذنبا ليهودي يرد للأممي ماله المفقود ، ورد الأشياء المفقودة من الأجانب ».

وهذه الأقوال دعوة صريحة إلى التعالي ، والاستغلال ، وامتصاص دماء الشعوب والأفراد(٨٥).

---

(٨٢) انظر خيري حماد. الصهيونية. ص ٧٩-٨٠.

(٨٣) ذكر ذلك الحاخام يهودا وزير الأديان الإسرائيلي في مؤتمر الكيرن كايميت بالقدس ١٩٥١م (خيري حماد ص ٧٣)

(٨٤) مع ملاحظة أن اليهودية دين وليست جنسا، وفي اليهودية أجناس كثيرة كاليهودي الخزري واليهودي الأسود واليهودي العربي والأوروبي.

(٨٥) خيري حماد. الصهيونية. ص ١٣.

وقد ذمهم الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم لذلك :

﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾(٨٦).

﴿ قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ﴾(٨٧).

وقد ربطت الحركة الصهيونية الهدف السياسي العنصري بالدين اليهودي ربطا محكما ، بأن حولت العلاقة الروحية التي تربط اليهودي بفلسطين (كالتي تربط المسلمين بمكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وبيت المقدس ، وكالتي تربط النصارى ببيت لحم ، والناصرة ، وكالتي تربط السيخ بمعبدهم الكبير في لاهور ، والشيعة بكربلاء)(٨٨) ، حولت هذه الرابطة إلى هدف سياسي للاستيطان بفلسطين ، مدعية أن اليهود يمثلون جنسا مميزا يعود إلى بني إسرائيل ، وأعلنت فلسفة مستمدة من الأساطير ، تتمثل في العودة إلى فلسطين ، بموجب الحق الطبيعي ، والتاريخي ، الذي يعود إلى ماقبل ثلاثة وعشرين قرنا. وحاولت أن تجعل من بعض نصوص العهد القديم وسيلة لكسب النصارى إلى صفها. ووضعت مخططا واسعا في سبيل إكساب وجود اليهود في فلسطين حقا تاريخيا ، بالتزوير في كتابات التاريخ ، ووضع الموسوعات ، والكتب باللغات المختلفة(٨٩) ، وكذلك القصص المسرحية ، والسينمائية ، التي تحاول فرض نظرية جديدة ، قوامها القول بأن إسرائيل هو الشعب المختار الذي واجه الاضطهاد على مدى التاريخ(٩٠) ، وأن عظماء الفكر في العالم ، وكبار المكتشفين والباحثين في مختلف العلوم ، كانوا من اليهود ، وإعلاء شأن الجنس اليهودي ، والدعوة إلى السامية ، واعتبار كل من يقف في وجه حركتهم هو من أعداء السامية(٩١) ، فنجحت الصهيونية في دمج الفكر الديني والسياسي ، معتمدة على إثارة المشاعر الدينية ، بعد تحويرها

---

(٨٦) سورة المائدة الآية ١٨.

(٨٧) سورة آل عمران الآية ٧٥.

(٨٨) ظفر الإسلام خان ـ التلمود ص ٧٠.

(٨٩) تقول الموسوعة (دائرة المعارف البريطانية : « إن الصهيونية حركة يهودية قومية ، هدفها خلق دولة قومية لليهود في فلسطين ، إذ يعتبرون هذه البلاد وطنهم الأصلي ويسمونها أرض إسرائيل » خيري حماد ص ٨).

(٩٠) انظر : جارودي ـ الصهيونية ص ٣٧، ص ٤٥.

(٩١) تمكن اليهود من استصدار قانون بفرنسا سنة ١٨٨١م إلى عدم التشهير بأي شخص بسبب انتمائه إلى عرق معين أو أمة ما أو جنس أو دين ولذلك من السهل اتهام من يكشف حقائق الصهيونية باللاسامية ويتعرض للمحاكمة القضائية / انظر جارودي. الصهيونية. ص ٥-٦.

من ناحية ، وعلى الإفادة من التجارب السياسية العنصرية المتزمتة في العالم ، تحت شعارات (القومية). وكانت الحركة الماسونية التي سبقت الحركة اليهودية في سبيل تحقيق هدف عريض تسعى له اليهودية العالمية للسيطرة على العالم. وقد تكشفت هذه المخططات من خلال ماتسرب إلى العالم من نصوص التلمود ، وماكشفت عنه بروتوكولات حكماء صهيون ، ويوميات هرتزل ، وعديد من الكتابات التي سمحت الصهيونية بإذاعتها بعد الحرب العالمية الثانية ، وحاولت بها أن تكشف عن مخططاتها الخفية التي كانت سرية ، ومحاطة بقدر كبير من الكتمان ، وذلك في محاولة لتضخيم دورها في سياسة العالم ، مما يولد اليأس لدى أعدائها ، بعد أن نجحت في كثير من مخططاتها ، وتحكمت في مصائر كثير من دول العالم.

هذا وقد سميت الصهيونية بهذا الاسم نسبة إلى جبل صهيون (Zion) بالقدس

واستخدمت الصهيونية الاستعمار الأوروبي ، والشيوعية الروسية ، لتحقيق أهدافها. وتحركت في جسم الأمة الإسلامية بواسطة مؤسساتها الجهنمية الماسونية ، والنوادي الرياضية ، والأندية الثقافية مثل الروتاري ، والليونز وغيرهما ، والجمعيات المختلفة ، فأحدثت الفراغ الفكري ، الذي حاول أن يتغذى بالفكر الغربي الديمقراطي ، أو الاشتراكي. فأدى ذلك إلى ازدواج الشخصية المسلمة ، ولم تواجه التحدي الصهيوني كعادة الأمة الإسلامية في مواجهة التحديات. فاشتد الخطر الصهيوني. وسنتناول ذلك بتفصيل عند البحث في قضايا العالم الإسلامي المعاصرة فهي قد قامت في مهمتين :

أ- المزيد من الصلات بالغرب ، والمزيد من التأكيد على أهمية دورها في الديمقراطية الغربية ، وحماية المصالح الأساسية للحضارة الغربية ، في منطقة الشرق الأوسط.

ب- المزيد من ربط الصهيونية بالشيوعية. واستغلال الشيوعية لتنفيذ المخططات الصهيونية ، بارتباط الأحزاب الشيوعية في البلاد الإسلامية بالمخططات الصهيونية.

وقد هدفت الصهيونية بالتعاون مع الاستعمار إلى أهداف أساسية في العالم الإسلامي :

١- تمزيق وحدة العرب والمسلمين ، والحيلولة دون وحدة العالم الإسلامي ، بالفصل بين قارتي آسيا وأفريقيا ، فهدفت الصهيونية إلى وراثة النظام الرأسمالي ، والسيطرة على العالم الإسلامي.

٢- تتمة الغزو الثقافي للعالم الإسلامي ، بتدمير كل القيم ، والأنظمة ،

والأخلاقيات ، ونقل أسلوب الإلحاد ، والإباحية ، والتسلط.

وقد أفرزت الصهيونية فكرا خطيرا في عالم الإسلام وفي العالم أجمع هو **الفكر الماسوني.**

والماسونية جمعية يهودية ، تهدف إلى تدمير القيم ، والأديان ، وهي تتشكل في إدارات اجتماعية ، هدفها الأساسي تنفيذ ماجاء في التوراة المحرفة ، من إحياء الأوهام التي تسيطر على الزعامات اليهودية ، من إقامة مملكة إسرائيل الكبرى ، وفي الوقت نفسه ، تحقيق ماجاء في بروتوكولات حكماء صهيون ، التي حملت المخططات الصهيونية اليهودية العالمية.

والترجمة الحرفية للاسم تعني : (جمعية البنائين الأحرار) أي الذين لاتربطهم رابطة أو تلزمهم نقابة(٩٢). وهي تزعم أنها مؤسسةاجتماعية ، فلسفية ، تحب الخير للإنسانية ، وترجو لها الترقي ، والتقدم ، وتهدف إلى البحث عن الحقيقة ، وترمي إلى تحقيق الأخلاق الدنيوية ، وتطبيق أسس التعاون ، والتآزر ، وتتخذ من وسائل الرقي المادية ، والمعنوية أساسا للتعامل الاجتماعي ، والفكري للإنسانية. ورفعت شعارا براقا هو : الإخاء والحرية والمساواة التى خدعت كثيرا من المفكرين واستهوتهم.

وقد كشفت بعض محافلها عن الأهداف الحقيقية لها وهي(٩٣) :

١ـ المحافظة التامة على اليهودية.

٢ـ محاربة الأديان بصورة عامة.

٣ـ بث روح الإلحاد والإباحية بين الشعوب.

وقد احتضنت بريطانيا هذا الاخطبوط الماسوني فكانت أسبق الدول بإنشاء محفل ماسوني أعظم ، ثم توالى بعد ذلك إنشاء المحافل الماسونية(٩٤) ، ودخلت بذلك البلاد الإسلامية لتزيد من تمزقها ومشاكلها(٩٥). وأنتجت الماسونية معاول هدامة في جسد المجتمع المسلم منها : البهائية ، والقاديانية ، ويهود الدونمة ، والروتاري ، والليونز ، والروحية الحديثة(٩٦).

---

(٩٢) الماسونية. محمد صفوت السقا وزميله ص ١١.

(٩٣) د. صابر طعيمة ـ الماسونية ذلك العالم المجهول ص ١٥٩.

(٩٤) انظر مجلة دار الهلال ـ القاهرة ـ العدد يونيو ١٩٧٧م ص ٣٣ـ٣٤.

(٩٥) انظر عن الماسونية في مصر / محمد صفوت السقا. الماسونية. ص ١٢٢.

(٩٦) انظر القوى الخفية لليهودية العالمية ـ الماسونية ـ لداود عبد العفّو سنقرط ـ ص ١١٧ ومابعد.

٥ـ الحركة الشيوعية :

ومن المصائب التي حلت بالعالم الإسلامي في القرن الرابع عشر الهجري ظهوز الشيوعية ، كاتجاه عقائدي يناقض الإسلام بالكلية ، وككيان رسمي هدفه إبادة الوجود الإسلامي واستئصاله ليس من الاتحاد السوفيتي فحسب وإنما من العالم أجمع.

والشيوعية فلسفة مادية جدلية للتاريخ ونظام الحياة ، تقوم أساسا على المادة ، ومعاداة الأديان ، تنتسب إلى «كارل ماركس» الفيلسوف الألماني وحفيد الحاخام اليهودي «مردخاي ماركس». ركز مع الفيلسوف الانجليزي «إنجلز» على فكرة الصراع الطبقي في إحداث التغيرات الاجتماعية ، والتي أخذها عن فكرة (الديالكتيك) الجدلية من الفيلسوف الألماني «هيجل» بعد أن قلبها وجعل المادة أصلا لاالفكر. بل اعتبر الفكر نفسه مادة. كما أخذ كثيرا من أفكار «موشي هس» صاحب كتاب الدولة اليهودية الذي تأثر به «هيرتسل» صاحب فكرة الصهيونية الحديثة ومنظرها.

وفي عام ١٣٣٦هـ/١٩١٧م قام لينين مع قادة الحزب الشيوعي بثورة دموية ، سقط خلالها عرش القيصرية الروسية ، فتحقق بذلك قيام دولة للفكر الإلحادي اللاديني في واحدة من أكبر دول العالم ، لتكون منطلق الغزو التبشيري للعقيدة الماركسية المادية التي أعلن أصحابها : بأنه لامبرر بعد للهدنة مع الميراث الديني ، وأصحابه ، وإلا أدت هذه المهادنة إلى بعث ديني فيه خطر على التجربة الاشتراكية(٩٧).

وتحرك الفكر الماركسي اللينيني وليد الصهيونية(٩٨) في جسم الأمة الإسلامية فكريا ، وواكبته حرب دموية ، هدفها استئصال المسلمين وتصفية وجودهم البشري والفكري في البلاد الإسلامية التي حكمتها. فقد بدأت الاشتراكية في البلاد الإسلامية العربية على شكل (موضة) بواسطة بعض الكتاب النصارى منهم :

---

(٩٧) د. صلاح الدين المنجد ـ كتاب بلشفة الإسلام ص ٢٤.

(٩٨) قال الملك فيصل بن عبد العزيز من كلمة في فريق طلبة الكلية الحربية بواشنطن : « عندما نقول الصهيونية والشيوعية نذكر اسمين ولكن في الحقيقة إن الشيوعية وليدة الصهيونية وهدفها الأساسي هو التخريب والتحطيم ». (جريدة البلاد السعودية. جدة/ عدد يوم الخميس ٢٦ صفر ١٣٩١هـ/٢١ ابريل ١٩٧١م. عن وكالة الأنباء السعودية).

وكان هذا عنوان كتاب أصدره أحمد عبد الغفور عطار (الشيوعية وليدة الصهيونية).

النصراني السوري شبلي شميل (١٨٦٠-١٩١٧) ، والكاتب النصراني المصري : سلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٩)[٩٩] دون أن يكون لهم تأثير على المجتمع.

وبعد ظروف إنهاء الخلافة العثمانية وفدت الشيوعية إلى العالم الإسلامي يحملها يهود إلى مصر سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢١م وسنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م حيث تعددت فيها المنظمات الشيوعية وكان أشهرها :

١- الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني ، واختصر إلى (حدتو) بزعامة اليهودي كوريل.

٢- منظمة أسكرا (الشرارة أو الشعلة) ورئيسها يهودي ماركسي يدعى (إيلي شوارتز) وغير الاسم إلى : نحو حزب شيوعي مصري ومختصره (نحشم).

٣- منظمة الفجر الجديد - التي سميت فيما بعد الديمقراطية الشعبية (د.ش) وأسسها : يوسف درويش ، وريمون دويك. واختصت هذه المنظمة باصطياد العمال ، والعاطلين ، والمنحرفين من الشبان والشابات.

٤- المنظمة الشيوعية المصرية (م.ش.م) وأسسها اليهوديان (أوديت) وزوجها (سلامون سدني).

وقد أثر الدعاة الشيوعيون في كثير من الطلبة ، والطالبات ، والعمال ، والمدرسين ، باسم الأماني الوطنية ، وتحرير مصر من الاستعمار ، ومناهضة الأحلاف العسكرية ، وسحروهم بالماركسية اللينينية ، وزعموا لهم أن الشيوعية نصير الشعوب المستعمرة المظلومة، وأنفقوا الأموال الكثيرة التي كانت تصلهم من موسكو بلا حساب(١٠٠).

وكذلك حمل الشيوعية إلى العراق يهود. واستطاعوا استمالة كثير من شباب العراق ، وشعرائه ، وأدبائه ، وكتابه ، وكان منهم بدر شاكر السياب الذي روى للأستاذ قدري قلعجي ما لديه من علم عن الشيوعية في العراق(١٠١)

وفي سوريا أسس الحزب الشيوعي يهودي يدعى (شامي) سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م وكان يتقن العربية(١٠٢).

واستطاعت الشيوعية أن تتسلل إلى الأقطار الإسلامية وأصبح في بعضها

---

(٩٩) برنارد لويس - العرب والشرق الأوسط ص ٩٥.

(١٠٠) الشيوعية وليدة الصهيونية. ص ٨٩.

(١٠١) في كتابه تجربة عربي في الحزب الشيوعي - ص ١٩، ٢١-٢٢.

(١٠٢) الشيوعية وليدة الصهيونية ص ٩٢.

أحزاب شيوعية قوية كاندونيسيا ، وبنغلاديش ، والعراق ، وسوريا ، والبلدان الأفريقية.

واستطاعت الصهيونية والشيوعية أن تشغل المسلمين بصراع وهمي مع الاستعمار ، وبصراع حقيقي ورهيب فيما بينهم ، مما أسموه التقدمية ، والرجعية ، والاقطاع ، والرأسمالية(١٠٣) ، وكانت الاشتراكية المخدر الذي أمات الشعور الإسلامي ، وألهاه عن الأخطار اليهودية وغيرها(١٠٤). فكانت بذلك تحديا خطيرا تحول من تحد خارجي إلى داخلي. والتحدي الداخلي أشد وأعنف من التحدي الخارجي. فما بالك إذا كان هذا التحدي الداخلي مدعوما بقوى خارجية هائلة الشيوعية والصهيونية؟!

وكانت الشيوعية عاملا مساعدا لانتشار ونمو كثير من الاتجاهات الفلسفية المادية ، التي تلتقي معها في أسس النظرة إلى الكون ، والإنسان ، والحياة ، **والوجودية**. كانت أبرز هذه التيارات على الاطلاق ، وقد وضع فلسفتها (جون بول سارتر) ذو النسب اليهودي (١٣٢٣-١٤٠٠هـ)(١٩٠٥-١٩٨٠م)) وتقوم نظريته على إبطال مبررات الوجود ، وإبطال تفسيره والحكمة منه. ومن هنا تلتقي نظريته بالشيوعية من حيث إنكار وجود الله.

ودعوته جريئة للإباحية والتحرر من المعتقدات ، والأعراف ، والقيم ، والتقاليد ، مما تعتبر المبرر الرئيسي لنشاط الفئات الشاذة في العالم كالهيبيين والخنافس وأشياعهم.

يقول سارتر : « إن ماينبغي أن تكون عليه حياة الوجودي هو توديع مايسميه الجبناء وجدانا ، وضميرا ، والاستجابة إلى داعي الحيوانية ، وتلبية كل ماتدعو إليه شهواته ، ونبذ كل التقاليد ، والتعاليم الاجتماعية ، وتحطيم القيود ، التي ابتدعتها

---

(١٠٣) نفسه ص ٧٤.

(١٠٤) انظر الاشتراكية في التجارب العربية. باشميل ص ٣٤.

الأديان»(١٠٥) .ودخلت فكرة الوجودية إلى العالم الإسلامي ، وزار سارتر كثيرا من دوله ، ومعه عشيقته (سيمون دي بوفوار) المؤمنة بفلسفته(١٠٦).

---

(١٠٥) وليم جيمس. إرادة الاعتقاد ص ١٢١ترجمة د. محمود حسب الله.

(١٠٦) وسيمون هذه لا توارب ولا تلف في ذكر أفكارها فهي ترى أن الزواج الذي قررته الأديان شيء سخيف ، وإن من حق المرأة أن تعاشر من تحب وإذا كانت متزوجة فلا يسوغ إكراهها على الرضا بشخص واحد../ وقد نشرت مجلة الهلال في ١٩٦٦//١/١م مقالا ضد الزواج طافحا بأوسخ الأفكار / وهو عدد ممتاز من مجلة الهلال يتضمن (موسوعة الجيب الاشتراكية ، من الاشتراكية الخيالية إلى الواقع المعاصر ، وفيه عرض أفكار سيمون هذه. واستقدم سارتر وعشيقته إلى القاهرة ليتحدثا إلى المثقفين في الجمهورية العربية المتحدة وعرضت لهما الدعاية في الأهرام وأسرة تحريرها : حسنين هيكل ولطفي الخولي ولويس عوض. وعقدت الندوات والمحاضرات ألقيت وتحدث الراديو والتليفزيون ينشر المشاهد والمحاورات وفي جامعة القاهرة... انظر. محمد الغزالي. الإسلام في وجه الزحف الأحمر ص ٣٦-٣٧.

الفصل الثالث

نتائج التحديات الخارجية والداخلية على العالم الإسلامي

كان من نتائج هذه التحديات مايلي :

أولا : الابتعاد عن تطبيق الشريعة الإسلامية:

إن توالي هذه التحديات ، والوقوف في وجهها تصدها الأمة ممثلة في علمائها ، ومجدديها ، وقادتها المخلصين ، استنزف قواها ، وقادها أخيرا إلى الضعف ، وأخذ العالم الإسلامي يسير من ضعف إلى ضعف. وأخذ المسلمون يتخلون عن موقعهم الأساسي في قيادة البشرية ، وتوجيهها إلى وجهة الخير التي يكلفهم بها الإسلام ، وتخلوا عن التبعات التي أناطها بهم في كل اتجاه ، حين قعدوا عن الاجتهاد وركنوا إلى التبعية والتقليد.

وانقطعت صلتهم بماضيهم وأسلافهم في الجهاد وتضحياتهم ، فانحسر إرثهم الإسلامي في بطون الكتب ، يدورون حوله ، فأهدرت في الأمة روح الإبداع ، والابتكار ، وانقاد المسلمون إلى عصر من **الجمود** ، وهو نوع من الانطواء على الذات في مواجهة التحديات ، حفظ عليهم حضارتهم ، وكيانهم ، ولو في حالة توقف حضاري ، والتزم علماء الأمة ومفكروها دائرة الحواشي ، والمتون ، وعكفوا على نصوص السابقين ، وكتبهم ، ينزلونها أحيانا منازل العصمة والقداسة(١).

وفي الوقت الذي بدأ فيه العالم الإسلامي يتحرك من جموده ، وبيعث الإسلام في مختلف مجالات حياته ، وينفض عنه غبار الجمود ، والتقليد ، والجبرية ، والتواكل ، بقيام دعوات سلفية لإحياء الإسلام في قلب الأمة (كحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد ، والحركة السنوسية في ليبيا ، والحركة المهدية في السودان ، والحركة الدهلوية في الهند ، والسلفية في المغرب ، وشركة إسلام والجمعية المحمدية في أندونيسيا، وحركة عثمان دنفديو في السودان الغربي) كان قد طغى سيل الحضارة الغربية المادية ، والتهم الاستعمار الغربي بلاد الإسلام ، واشتد التحدي ، فلم تنجح هذه الحركات في لم شعث المسلمين ، وكان نجاحها محدودا ، وفي بلاد معينة. فابتعد المسلمون عن تطبيق الشريعة بفعل هذا الاستعمار

---

(١) فتح الله ص ٢٤.

والصهيونية والشيوعية وأساليبها أكثر فأكثر(٢) ، واشتد الأمران : الوهن الداخلي ، والتآمر الخارجي ، على الكيد للشريعة الإسلامية وتشويه معالمها فكريا ، وصرف المسلمين عنها واقعيا.

وكان أول قطر بدأ فيه إلغاء الشريعة الإسلامية هو **الهند** ، فقد أخذ الانجليز يلغون القانون الإسلامي آنا بعد آن ، ويستبدلون به القوانين الوضعية ، حتى تم إلغاؤه في أواسط القرن التاسع عشر ، ولم يبق منه إلا مايسمى بقانون الأحوال الشخصية ، الذي يتعلق بمسائل النكاح والطلاق وغيرهما(٣).

وألغى الانجليز الحكم بالشريعة في **السودان** ، عام **١٣١٧هـ/١٨٩٩م** ، وقد أخذ أساسا من قانون العقوبات الذي وضعه الانجليز للهند سنة **١٢٧٧هـ/١٨٦٠م**.

وفي **العراق** استبدل الانجليز فور الاحتلال بقانون الجزاء العثماني قانونا جديدا ، أصدره قائد قوات الاحتلال ، سنة **١٣٣٧هـ/١٩١٨م** ، باسم (قانون العقوبات البغدادي). وفي **تونس** طبق القانون الوضعي عام **١٣٣٣هـ/١٩١٤م**. وصدر بعنوان (المجلة الجنائية) واقتبست نصوصه من القوانين الفرنسية ، والإيطالية.

وفي الوقت نفسه كانت بريطانيا وفرنسا تدفعان **الدولة العثمانية** ـ دار الخلافة ـ إلى منزلق خطير جدا ، يأخذ اسم الإصلاح وشكله ، بينما ينطوي في داخله على أكبر المفاسد ، وقد أعان على ذلك جنود الغزو الفكري من أبناء الدولة نفسها ورعاياها ، فأصدرت الدولة العثمانية عقب مؤتمر باريس سنة **١٢٧٢هـ/١٨٥٦م** الذي أنهى حرب القرم(٤). قوانين عرفت باسم (التنظيمات الخيرية) ـ التجديدات ـ وتضمنت إنشاء مايسمى بالمحاكم المختلطة والمحاكم التجارية تابعة للدولة نفسها وتطبيق قوانين أجنبية باسم دولة الخلافة الإسلامية ذات السيطرة الواسعة على المسلمين. وكان هذا هو حدث الأحداث في بداية انهيار التشريع الإسلامي من حيث التطبيق والتنفيذ. وحتى مجلة الأحكام الشرعية ـ الأحكام العدلية التى أصدرتها الدولة عام **١٢٩٥هـ/١٨٦٩م** وقننت فيها أحكام المعاملات من مذهب أبي حنيفة لتقابل مايسمى بالقانون المدني في الأنظمة الوضعية ـ حتى هذه المجلة لم تكن تطبق إلا على

---

(٢) انظر وصف لوثروب ستودوارد للعالم الإسلامي في القرن الثامن عشر الميلادي. حاضر العالم الإسلامي ج١ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٣) فتح الله ص ١٠٤-١٠٥ عن أبي الأعلى المودودي / رسالة القانون الإسلامي وطرق تنفيذه ص ١٠-١١. وانظر التفاصيل :أصول قانون العقوبات ص ١٣،١٤.

(٤) انظر .د.على حسون. الدولة العثمانية ص ١٥٨.

رعايا الدولة فقط وفي الأحوال التي لايكون فيها أحد طرفي النزاع أجنبيا ، ثم مع ذلك استمرت عرضة للتحريف والانتقاص(٥) إلى أن انحسرت دولة الخلافة ثم زالت.

وأما **مصر** : فقد تعرضت لحملة نابليون الفرنسية عام **١٧٩٨م** الذي حاول تنحية الشريعة الإسلامية. فصرخ أحد علماء الأزهر (وهو الشرقاوي) في وجهه قائلا : « لو كنت مسلما حقا كما تدعي ، لطبقت الشريعة الإسلامية في بلدك فرنسا ، بدلا من تنحية الشريعة هنا ، ووضع القوانين الوضعية ».

وبعد فشل حملة نابليون ـ اتجهت فرنسا لتدعيم محمد علي باشا والترحيب ببعثات الطلاب المصريين في بلادها ، وبعث العلماء والأطباء والقادة العسكريين إليه ، ليكونوا في الحقيقة رسل التغيير ، وحملة الحضارة الفرنسية. وكان في بداية هذا إدخال بعض القوانين التجارية والحربية إلى مصر نقلا عن قوانين فرنسا.

وظل النفوذ الفكري الفرنسي يتسلل إلى مصر حتى كان الخديوي إسماعيل الذي ربي في فرنسا ، وصاغته صالونات باريس ، وصداقاته المتعددة لرجالها ونسائها صياغة جديدة غريبة تماما عن الأمة ، فكان مبهورا بما رأى وسمع ، وكانت أمنيته التي صرح بها مرارا أن يجعل مصر قطعة من أوربا ، فأسرف في تشييد القصور ، وإقامة التماثيل والحدائق والمتنزهات والمسارح ودور الغناء بلا ضرورة ولا وعي ، فأغرق بلاده في الديون ، وأنشأ دار الأوبرا ، واستقدم لها المغنيين والمغنيات ، واستأجر أشهر موسيقي أوربا ليضعوا لها الألحان.

وكان إسماعيل هذا أول من تجرأ على هدم شريعة الإسلام هدما غير مسبوق في تاريخها ، فقد أنشأ أول مدرسة للحقوق على النمط الفرنسي ، فأصبحت مصدرا أساسيا لتخريج أجيال مقطوعة الصلة بشريعة الإسلام ، ثم طورت لتصبح كليات واسعة النطاق.

ويذكر محمد طلعت حرب ـ الإقتصادي المصري الشهير(٦) : أنّ إسماعيل لما أراد أن ينفصل بمصر عن الدولة العثمانية ، وعد ملوك أوربا إن أيّدوه أن يبدّل أحكام القرآن فيما يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية ، ويفصل السياسة عن الدين ، ويطلق الحرية للنساء ، بحيث يسرن في إثر المزأة الغربية ، وينقل إلى مصر

---

(٥) انظر فتح الله ص ٤٦-٤٧ ، د. محمود مصطفى. أصول قانون العقوبات في الدول العربية ص ٩-١٠ ، على حسون ص ١٦١-١٦٢.

(٦) ويضيف فتح الله (ص ٥٢) أن هذه الواقعة التاريخية لم نجد من يكذبها وهي مأخوذة عن : تربية المرأة والحجاب الذي نشر عام ١٨٩٩م ردا على كتاب قاسم أمين. تحرير المرأة. للدكتور ماهر حسن فهمي ص ١٤٠. ط وزارة التعليم المصرية / ص ٦٥ من ط سلسلة أعلام العرب.

معالم المدنية الأوروبية.

وغرقت مصر في الديون. فتدخل الأجانب بحجة حماية أموالهم حتى كان في الوزارة المصرية وزيران انجليزي وفرنسي. فدخلت رياح الانقلاب التشريعي وانتهت باحتلال البلاد كلها ثم فرض شريعة الغرب عليها.

أما في **المغرب والجزائر** فقد فصل علال الفاسي خطوات محاولة القضاء على الشريعة الإسلامية فقال(٧) :

« كانت الشريعة الإسلامية هي المرجع الذي تؤول إليه كل القضايا ، والقاضي الشرعي هوالذي يتولى الحكم في المسائل المدنية والجنائية ، وفي نظام الأسرة كذلك.

ولكن الحماية الفرنسية بمجرد انتصابها حدت من اختصاصات المحاكم الشرعية ، وقوت محاكم الأحبار اليهودية ، وأسست المحاكم العرفية في القبائل البربرية ، ولكن المحاكم التي كانت تطبق قوانين منظمة هي المحاكم الخاصة بالأجانب. أما المغاربة فإنهم كانوا يخضعون للعرف في القبائل البربرية ، وللقانون المغربي حينما يرفعون للمحاكم الفرنسية ، وللشريعة الإسلامية غير المقننة في محاكم القضاء. هذا في جنوب المغرب ، أما في الشمال فقد احتفظت المحاكم الشرعية باختصاصاتها فيما يرجع للجنايات والجنح ، والشئون المدنية والأحوال الشخصية. وأسست محاكم أسبانية مغربية للأجانب ، **وللقضايا** التي فيها أجانب ...

وهكذا أصبحت الشريعة الإسلامية معطلة وملقاة ، لأن الاستعمار جعل من تسرب القانون الأجنبي سبيلا للقضاء على الكيان المغربي ، وعلى الفكر الإسلامي في المغرب ».

ثم قال في لجوء الحكومة الفرنسية إلى استصدار الظهائر البربرية كوسيلة للعمل على إلغاء الشريعة خاصة بين البربر(٨) :

« وهذه السياسة التي أطلقت عليها فرنسا اسم السياسة البربرية وقننتها منذ عام **١٨٥١م** في الجزائر حيث أخرجت القبائل من أحكام الشريعة الإسلامية زاعمة أن البربر الجزائريين هم الذين طلبوا بعث أعرافهم ، وتكوين أنظمة قضائية تقوم مقام القضاء الإسلامي.

وفي ٢٩ أغسطس عام ١٨٧٤م ألغت فرنسا تلك الجماعات العرقية التي أسستها ، وضمّت القبائل البربرية إلى اختصاص قضاة المصالح الفرنسية الذين

---

(٧) دفاع عن الشريعة ص ١٢٧-١٣١.

(٨) نفسه ص ١٥٩-١٦١.

يطبقون عليهم القوانين الفرنسية ، فيما عدا الاستثناءات المعروفة بقانون الأندية ، وفيما عدا الأحوال الشخصية ، فقد أبقتها على مقتضى العرف ، ولكن قاضي الصلح الفرنسي هو الذي يطبقه.

وفي ١٠ سبتمبر عام ١٨٨٦م ضمت فرنسا اختصاصات المحاكم الشرعية في القطر الجزائري كله إلى دائرة قاضي الصلح الفرنسي.

وهكذا جعلت فرنسا من سياسة الرجوع إلى الأعراف الجاهلية قنطرة لضم الجزائر إلى المحاكم الفرنسية وتطبيق قوانينها بعد إلغاء القانون الإسلامي الشرعي.

وبمجرد ما تم بسط الحماية الفرنسية على المغرب استصدرت الإقامة الفرنسية ظهير عام **١٩١٤م** في عنفوان الحرب العظمى الذي يقضي باحترام العوائد البربرية. وتظهر أهمية هذا الظهير بالنسبة لإلغاء المحاكم الشرعية من التعليق الذي كتبه المسيو رينو قال : « فظهير ١١ سبتمبر في نظر الفرنسيين سبيل إلى إخراج القبائل البربرية من الإسلام ، لأن الفرنسيين متيقنون أن قبول التحاكم لغير الشريعة الإسلامية تخل نهائي من الإسلام ... » وفي سبيل ذلك استصدرت الحماية عدة ظهائر وقرارات ، وقد توج ذلك كله بظهير ١٦ مايو عام ١٩٣٠م.

وهكذا كان النتيجة أن ألغي العمل بالشريعة الإسلامية في معظم بلاد الإسلام. وبقيت زاوية ضيقة لها هي زاوية الأحوال الشخصية التي حاول تلاميذ الغرب زحزحة الشريعة عنها إلى أن أزالوها عن كثير من البلدان الإسلامية.

ثانيا : سقوط الخلافة العثمانية وتفكك الأمة الإسلامية :

العثمانيون من شعب الغز التركي ، وأصلهم من بلاد التركستان ، نزحوا أمام اكتساح جنكيز خان لدولة خوارزم الإسلامية ، بزعامة سليمان الذي غرق أثناء عبوره نهر الفرات سنة ٦٢٨هـ. فتزعم القبيلة ابنه (أرطغرل) الذي ساعد علاء الدين السلجوقي في حرب البيزنطيين فأقطعه وقبيلته بقعة من الأرض في محاذاة بلاد الروم غربي دولة سلاجقة الروم.

ويعتبر عثمان بن أرطغرل هو المؤسس الأول للدولة العثمانية ، وبه سميت ، عندما استقل بإمارته سنة ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م ، نتيجة لانحلال دولة سلاجقة الروم ، وأخذت هذه الإمارة على عاتقها حماية العالم الإسلامي ، وتولت قيادة الجهاد ، وأصبحت المتنفس الوحيد للجهاد ، فجاءها كل راغب فيه ، واجتذبت المتحمسين لنصرة الإسلام من مجاهدين وعلماء ودعاة ، فتمكنت بذلك من رد الصليبيين

ونقلت الصراع من آسيا إلى أوربا(٩) بعد أن كان العالم الإسلامي على وشك الوقوع بين كماشة الصليبية أحد فكيها : البرتغاليون في البحر من الجنوب الشرقي ، وقواعدهم في شبه القارة الهندية ، والفك الآخر : كان زحف الروس من الشمال.

وبهذه العاطفة الإسلامية المتأججة في نفوسهم ممتزجة بالروح العسكرية المتأصلة في كيانهم ، حملوا راية الإسلام ، وأقاموا أكبر دولة إسلامية عرفها التاريخ في قرونه المتأخرة ، امتدت على ثلاث قارات هي : آسيا ، وأوربا ، وأفريقيا ، فاستطاعوا إزالة الدولة البيزنطيةمن الوجود ، واستولوا على البلقان ، ودقوا أبواب فينا عاصمة الامبراطورية النمساوية على نهر الدانوب ، ووصلوا جنوب روسيا ، وساحل بحر الأدرياتيك ، وهددوا روما نفسها مركز البابوية ، فبسطت بذلك لواء الإسلام على مايعرف اليوم بدول أوربا الشرقية ، واليونان ، وجزر البحر المتوسط ، وأجزاء من ايطاليا ، والنمسا ، كما خضعت لها الأرض الممتدة من شمال القفقاس شمالا ، حتى الصحراء الأفريقية جنوبا ، وحدود المغرب الأقصى غربا ، ومدت جناحها الشرقي حتى بلاد فارس ، وجبال كردستان ، شاملة مساحة من الأرض قدرت بأكثر من عشرة ملايين ميل مربع. فكانت أقوى دولة في العالم آنذاك(١٠). وأبطلت عمل الكماشة الصليبية ، وهددت أوربا ،وألزمتها جانب الدفاع أمام الإسلام فترة طويلة من الزمن. وبقيت الحارس الأمين للعالم الإسلامي أربعة قرون ، وأطلقت على دولتهم اسم (بلاد الإسلام) ، وعلى حاكمها اسم (سلطان) وكان أعز ألقابه إليه : (الغازي) أي المجاهد. أما اللفظان العثماني والتركي فهما من المصطلحات الحديثة. كما أطلق على جيوشها : (جند الإسلام) ، وعلى عالمها الديني : (شيخ الإسلام)(١١). وحكمت بالعدل بالعمل بالشرع الإسلامي. في القرون الثلاثة الأولى لتكوين هذه الدولة.

ويتساءل المؤرخون كيف تمكن الأتراك العثمانيون منذ البداية المبكرة أن يحرزوا الانتصارات على الدولة البيزنطية العريقة ، وتأتي الإجابة على ألسنتهم. وفي مقدمتهم المؤرخ الشهير (ستافريانوس) الذي يؤكد « أن نصرهم لم يكن بالإمكان تحقيقه لولا عظمة الإسلام ، وماغرسه في قلوبهم من حب عميق للقتال في سبيل الله ، والرغبة الصادقة في نشر رسالة الإسلام ، واستمد عثمان ومن خلفوه قوتهم من

---

(٩) العسلي. الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ص ٣٠٠.

(١٠) علي حسون. الدولة العثمانية ص ٩.

(١١) برنارد لويس ـ الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية ص ٤٦٨.

الفيض الدائم المتدفق من الغزاة أو المقاتلين في سبيل الله والدين ، والذين وفدوا من كل أنحاء الأناضول ليقاتلوا ضد أعداء الإسلام ».

لقد تكونت في كل أنحاء الأناضول جمعيات الإخوة الإسلامية ، تدعو للجهاد في سبيل الله ، وتتعاون من أجل إعداد المجاهدين لإعلاء كلمة الحق ، وكان شعارها الدائم (فضل أخاك على نفسك). وحين زار الرحالة المسلم الشهير (ابن بطوطة) آسيا الصغرى في عام ١٣٣٣م وصف معيشتهم وتعاونهم وكرمهم وأعجب بسمو أخلاقهم ، وعندما افتتح محمد الفاتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م اتخذها عاصمة للإسلام ، وكتب إلى أمراء المسلمين ينبئهم بهذا الفتح العظيم ، فقال في رسالته إلى إينال شاه سلطان مصر المملوكي (١٤٥٣-١٤٦٠م) :

« إن من أحسن سنن أسلافنا أنهم مجاهدون في سبيل الله ، ولايخافون في الله لومة لائم ، ونحن على تلك السنة قائمون ، وعلى تلك النية دائمون ، ممتثلين بقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ﴾. ومتمسكين بقوله عليه السلام : « من أغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار » فهممنا هذا العام .... إلى أداء فرض الغزاء في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالى ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ ، وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجورا وكفرا ، والتي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخرا... »(١٢).

ولقد قدم المسلمون من الأتراك للنصارى في أوربا أمثلة صادقة حية تمثل سماحة الإسلام ، وعظمة المسلمين ، فاعتزوا به ، وعزوا ، وصار منهم كبار القادة في جيش المسلمين ، وتولى كثيرون منهم أهم المناصب في الدولة(١٣) ، الأمر الذي أزعج أوربا ، وجعلها تعقد التحالفات الصليبية المتكررة لطرد العثمانيين ، ولكن الفشل كان لها بالمرصاد(١٤) ، فظهر في عالم السياسة الأوربية ماعرف باسم (المسألة الشرقية) التي كانت تعني حينذاك ضرورة تكاتف أوربا النصرانية لمواجهة خطر العثمانيين ، وإيقاف تيار فتوحهم الجارف. وقد وصفها بعض الكتاب من

---

(١٢) عمر عبد العزيز عمر - تاريخ المشرق العربي ص ٤٤.

(١٣) انظر : د. محمد كمال الدسوقي. الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص ١٤- ١٥.

(١٤) كالتحالف الصليبي عام ١٣٦٤م وسنة ١٣٩٦م. معركة نيبوليس. وسنة ١٤٧٩م.انظر د. دسوقي ص ٢٣ ، ص ٢٦ ، ص ٤٨. وتحالف الأساطيل الأوروبية حيث هزمت الدولة العثمانية في معركة ليبانت بعد سلسلة من هزائم تعرضت لها من الأسطول العثماني عام ٩٧٩هـ/١٥٧١م.

الشرق ومن الغرب ، بأنها مسألة النزاع بين النصرانية والإسلام ، أي مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة العثمانية القائمة بأمر الإسلام وبين دول النصرانية(١٥).

وبعد أن أصاب الوهن المسلمين بما فيهم الدولة العثمانية تغير مفهوم المسألة الشرقية ، وأصبحت تعني ، ضرورة طرد العثمانيين من أوربا ، وتقسيم ممتلكاتهم في هذا الميدان الأوربي ، ثم تقسيم ممتلكاتهم جميعا ، وخرجت التسمية الأوربية للدولة العثمانية باسم (الرجل المريض) ، وكانت روسيا القيصرية لاتنقطع عن إثارة الفتن بين دول البلقان ، وتأليبهم على الحكم العثماني ، ومدهم بالسلاح بدعوى التخلص من حكم المسلمين(١٦). وبلغ التعصب بأحد كتاب فرنسا أن اقترح حلا للمسألة الإسلامية ، القضاء على المسلمين ، ونبش قبر الرسول الكريم ﷺ ، ونقل عظامه إلى متحف اللوفر بباريس(١٧).

أما في بريطانيا ، فتظاهرت بأنها تقف مع وحدة أملاك السلطان ، وكانت تبتلع شيئا من أملاكه كلما حانت الفرصة ، ثم تنتظر مدة لتهضم ماابتلعته دون ضجة من بقية الدول الأوروبية(١٨).

لقد اتهم الكثيرون الدولة العثمانية بكل باطل ، وألصقوا بها صورة التخلف الدائم ، وتناقلت ذلك الأقلام الغربية الحاقدة على هذه الدولة ، وعلى الإسلام وربطوا في غمرة حقدهم بين ذلك التخلف وبين الإسلام ، ونسبوا له كل ماأصاب الدولة من ضعف ووهن ، وكل ماجاء بها من كوارث ومشاكل على مر العصور ، ونسوا أو تناسوا أن كل مايصيب الأمة الإسلامية من خير وعزة ، يصيبها دائما حين تتمسك بالقيم الإسلامية ، وأن كل مايحل بها من هوان ، يحل بها حين يضعف تمسكها بالدين الحنيف ، وأن الإسلام والتمسك به سر عظمة هذه الأمة.

وقد بقيت الدولة العثمانية عزيزة الجانب وهي تذود عن حمى الإسلام وأسدت خدمات جليلة للإسلام والمسلمين على امتداد تاريخها ، ولكنها في الفترة الأخيرة من حياتها وقعت في أخطاء عديدة ، أخطرها على الإطلاق هو : تشجيع

---

(١٥) د. محمد محمد حسين. الاتجاهات الوطنية. ج١/٢٣ عن المسألة الشرقية ص ٥ لمصطفى كامل.

(١٦) تاريخ الدولة العلية ص ٣٤١.

(١٧) تاريخ الأستاذ الإمام ج١/٨٠١.

(١٨) انظر ـ المسألة الشرقية لدسوقي. ص ٢٨٠ ، ص ٣٠٤.

الصوفية ، وعدم اتخاذ الإسلام مصدرا أساسيا للتشريعات والقوانين والأنظمة التي تسير عليها الدولة - فكثر إصدار التشريعات والقوانين الوضعية فيما سمي بالتجديدات (كما ذكرنا) وذلك بسبب الضغوط الأوروبية ، فتنكبت الدولة الطريق في مواجهة العواصف الاستعمارية ، مما نتج عنه عدم استطاعتها المقاومة وانهارت في النهاية.

وفي هذا الجو الحرج ارتقى عبد الحميد الثاني سلطة الخلافة (**١٢٩٣-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م**) ، في أسوأ ظروف التآمر على الدولة وعلى المسلمين ، فقد استولى أعداء المسلمين على أفريقيا شمالها وجنوبها وغربها وشرقها وتوغلوا في وسطها ، كما استولوا على معظم آسيا في القوقاز والتركستان وهندستان وجميع جنوب شرق آسيا ، وشواطيء شبه الجزيرة العربية عدن وحضرموت وعمان وإمارات الخليج ، ولم يبق خارجا عن سيطرة أعداء المسلمين إلا نجد والإحساء وعسير واليمن داخل شبه الجزيرة العربية ، والعراق والشام والحجاز وبلاد الأناضول وجزء من البلقان في شرق أوربا وطرابلس الغرب (التي سقطت عام **١٣٣٠هـ/١٩١١م بيد ايطاليا**) تحت سلطان الخلافة العثمانية. وعقدت أوربا مؤتمر برلين بإشراف (بسمارك) رئيس وزراء ألمانيا ، وأشركت فيه الدولة العثمانية ، وقد أهمل هذا آراء العثمانيين ، بل كانوا محتقرين خلال انعقاده ، وانتهت قراراته إلى إعادة رسم خريطة البلقان ، وكانت كلها موجهة ضد الدولة العثمانية ، وسعت كل دولة إلى نهب قطعة من الدولة العثمانية بأية وسيلة كانت ، فأخذت بريطانيا قبرص بحجة حماية الأملاك العثمانية الآسيوية ، ولفتت أنظار فرنسا إلى تونس ، وتطلعت هي إلى مصر ، وإلى شرق أفريقيا وقرنها. وبصفة عامة خسرت الدولة العثمانية في مؤتمر برلين مالم تفقده في أي حرب سبقت(١٩).

في هذه الظروف نادى السلطان عبد الحميد بفكرة الجامعة الإسلامية في مختتم القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين ، في محاولة لحفظ الدولة العثمانية المتداعية من الانهيار ، وليصون عقدها من الانفراط ، وفي محاولة لتنمية الشعور بالرابطة الإسلامية ، وتغذية الإحساس بالخطر الذي يهدد شعوبها أمام غول الاستعمار المتربص بها(٢٠) ، فيدعوها إلى التجمع حول دولة الخلافة ، بوصفها

(١٩) انظر نوار (د. عبد العزيز سليمان) - الشعوب الإسلامية ص ٢٠٣.

(٢٠) الاتجاهات الوطنية ج١/٢٠.

أقوى البلدان الإسلامية وأقدرها على قيادة المعركة ضد العدو المشترك فكان نداؤه : « يامسلمي العالم اتحدوا ». وأنشأ مدرسة للدعاة ، سرعان ما انبث خريجوها في كل أطراف العالم الإسلامي. كما لجأ السلطان عبد الحميد إلى الاستفادة من التنافس القائم بين الدول الأوروبية ، فحاول جهده الإيقاع بينها. وطبعا كانت هذه السياسة على حساب بعض التنازلات منه. واهتم بالبلاد العربية وباللغة العربية. وكون حرسه الخاص من العرب وعين بعضهم في وظائف كبيرة ، واهتم بإنشاء خط سكة حديد الحجاز .

ومن الحق أن يقال إن حركة السلطان عبد الحميد ودعوته هزت دول العالم الغربي ، وخاصة انجلترا ، وفرنسا ، وروسيا ، وكلفتها جهدا كبيرا في سبيل مقاومتها ، ورميها بكل نقيصة ، واتهام السلطان عبد الحميد والتشكيك فيه ، وأخذت تضع الخطط لإسقاط الخلافة العثمانية وبأيدي مسلمين ، فلجأت إلى التآمر بالاشتراك مع الصهيونية والمحافل الماسونية للإطاحة به. وانطلقت الصحافة الأوروبية بذلك وتابعتها الصحافة العربية في مصر التي قاد حركتها خريجو الارساليات الأجنبية التبشيرية مثل : سليم سركيس ، وجورجي زيدان ، وفارس نمر ، ويعقوب صروف ، وفرح أنطون ، وغيرهم من الصحفيين النصارى الذين حملوا لواء التشهير بالسلطان عبد الحميد ، ومعارضته ، وإشاعة الاتهامات المختلفة حول شخصه ، وتصويره بصورة رديئة لحساب اليهودية العالمية ، وبعطف الدولة البريطانية الحاكمة في مصر وتشجيعها. وظهرت هذه الحملة بصورة خاصة في صفحات (الهلال) المجلة التي كان يشرف على تحريرها جرجي زيدان. وفي صفحات رواياته ومؤلفاته.

وكان كرومر المعتمد البريطاني في مصر سنة (١٣٠١-١٣٢٥هـ/١٨٨٣-١٩٠٧م) هو أول من ألب على الجامعة الإسلامية ، وحرص على أن يتحدث في تقاريره السنوية عن الجامعة الإسلامية ببغض شديد. وفي الوقت نفسه نشرت الأهرام (المصرية) تصريحات مثيرة لوزير فرنسي هو (هانوتو) هاجم فيها الجامعة الإسلامية. وكانت مهاجمة الجامعة الإسلامية تستتبع بالتالي مهاجمة الدولة العثمانية حتى تتفرق الوحدة التي تجمع من حولها الدول الإسلامية لتواجه النفوذ الاستعماري الزاحف ، الذي قد رسم مخططه على أساس التهام هذه الوحدات ، والحيلولة دون التقائها مرة أخرى في أي نوع

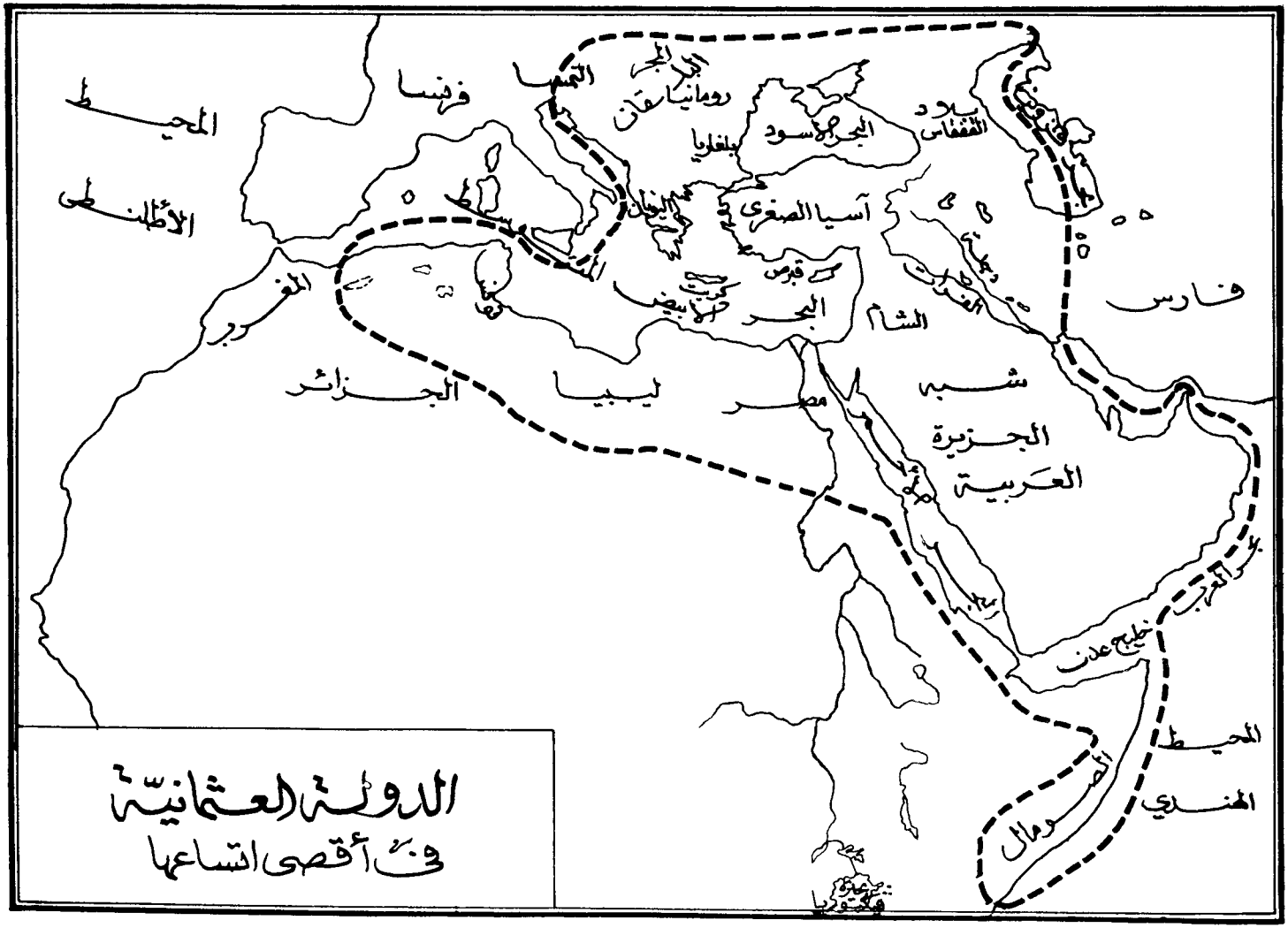
المحيط
الأطلنطي
فرنسا
النمسا
البلقان
رومانيا
بلغاريا
البحر الأسود
بلاد القفقاس
آسيا الصغرى
قبرص
كريت
البحر الأبيض
البحر
الشام
العراق
فارس
المغرب
الجزائر
ليبيا
مصر
شبه الجزيرة العربية
البحر الأحمر
خليج عدن
المحيط الهندي
الصومال
الدولة العثمانية
في أقصى اتساعها

من الوحدة ، ليستديم سيطرته عليها(٢١). فاتخذوا لذلك عدة أعمال أساسية(٢٢):

١ـ تعميق الدعوات الاقليمية والخاصة بالوطنية والأرض والأمة والعرق.

٢ـ خلق جو فكري عام لمحاربة الوحدة الإسلامية وتصفيتها.

وكل هذا مقدمة لإلغاء الخلافة العثمانية نهائيا وبالتعاون مع الصهيونية.

وقبل أن نذكر كيف زالت الخلافة لابد لنا من ذكر الجوانب المشرفة في تاريخ الدولة العثمانية ومنها :

١ـ أن العثمانيين هم الذين أزالوا من خريطة العالم أعتى امبراطورية صليبية ، هي الامبراطورية البيزنطية ، وفتحوا عاصمتها القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ، التي استعصت على المسلمين مايربو على الثمانية قرون.

وكانت الدوافع الحقيقية وراء محاولة الفتح إسلامية جهادية حافزها بشارة النبي ﷺ وثناؤه على الفاتح وجيشه ، وغايتها إعلاء كلمة الله في الأرض ، والجهاد في سبيله(٢٣) ، كما تابعوا المد الإسلامي في أوربا حتى أصبح شرق أوربا كله ترفرف عليه رايات الإسلام ، ففتحوا بلغراد سنة ٩٢٧هـ، وبودا عام ٩٣٢هـ، وحاصروا فينا عاصمة النمسا في قلب أوربا ٩٣٥هـ/١٥٢٩م . وسنة ٩٣٨هـ زمن السلطان سليمان(٢٤) وسنة ١٠٩٤هـ/١٦٨٣م(٢٥).

٢ـ حفظتالدولة العثمانية لشمال إفريقيا إسلامه وعروبته ، عندما وقفت ضد أطماع الصليبيين الأسبان ، الذين بدأوا يتجهون إلى استعمار الشمال الأفريقي ، بعد قضائهم على الدولة الإسلامية في الأندلس ، بسقوط غرناطة سنة ٩٨٧هـ فقد هاجر الكثير من المسلمين إلى شمال أفريقيا ، وقام الأسبان بملاحقتهم حتى وصلوا الشواطيء الإسلامية ، واحتلوا بعض موانيء المغرب الأقصى والجزائر ، وقبل الحفصيون في تونس الحماية الأسبانية بالضغط والقوة. فقام العثمانيون بإلحاق الجزائر بناء على طلب أهلها سنة ٩٣٥هـ، ثم حرروا تونس سنة ٩٤١هـ(٢٦) ،

---

(٢١) أنور الجندي. العالم الإسلامي والاستعمار ص ١٧٨-١٧٩ /انظر حاضر العالم الإسلامي ج٤/٦٦-٨٦ لشكيب أرسلان.

(٢٢) نفسه ص ١٨٢.

(٢٣) ويعني قوله ﷺ : « لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش » . رواه الإمام أحمد والحاكم عن بشر الغنوي كما في كنز العمال.

(٢٤) المسألة الشرقية ص ٥٧.

(٢٥) د. علي حسون ص ٩٦.

(٢٦) انظر علي حسون ص ٥٢ ، ٥٤.

وحرروا طرابلس الغرب من الأسبان سنة ٩٢٦هـ(٢٧) ، فكبحوا جماح الصليبيين هناك.

٣- جعل العثمانيون البحر الأحمر بحرا إسلاميا مغلقا بمعنى تحريم الملاحة في هذا البحر على السفن النصرانية ، وكان التبرير لهذا الإجراء هو أن البحر الأحمر تطل مياهه على الأماكن المقدسة الإسلامية ، فيجب ألا تدنس تلك المياه بوجود سفن نصرانية ، وكان سبب هذا الإجراء الوقائي هو تآمر البرتغاليين مع ملك الحبشة على غزو الأماكن المقدسة في مكة والمدينة. واستولى البرتغاليون على عدن ومسقط عام ٩٢١هـ. فكان حافزا للدولة العثمانية على إلحاق المنطقة لانقاذها(٢٨).

٤- تحقق في ظل الدولة العثمانية الوحدة الإسلامية على مساحة كبيرة من العالم الإسلامي ، من العراق شرقا إلى مراكش غربا ، ونعمت تلك المنطقة بالهدوء والاستقرار نوعا ما. فقد ضم السلطان سليم الشام عام ٩٢٢هـ ومصر عام ٩٢٤هـ، ووصل تبريز عام ٩٢٠هـ، وفتح السلطان سليمان العراق سنة ٩٤٠هـ وحماه من تغلغل المذهب الشيعي الصفوي. وكانت الدولة الصفوية على علاقات طيبة مع ملوك الصليبية وفتحت أبوابها لنفوذهم. كما كانت الدولة العثمانية على علاقات طيبة بملوك المغرب الأقصى.

٥- حفظت الدولة العثمانية قلب العالم الإسلامي من الزحف الاستعماري الصليبي الأوروبي مابقيت قوية لمدة ثلاثة قرون ، وجه الصليبيون خلالها اهتمامهم إلى تطويق العالم الإسلامي بالزحف على أطرافه البعيدة عن مركز الخلافة. وخاضت حربا لاهوادة فيها مع الصليبيين البرتغال في مياه المحيط الهندي والهادي ، وفي بحر العرب ، والخليج العربي ، ورفعت معنويات المسلمين في جزر الهند الشرقية وجنوب آسيا والشرق الأقصى. واستمرت دعوة الإسلام تواصل انتشارها هناك.

٦- ولعل من أنصع تلك الصفحات المشرفة موقف السلطان عبد الحميد من المطامع الصهيونية في فلسطين ، حيث رفض رفضا قاطعا السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين ضاربا بإغراءاتهم المادية عرض الحائط ، كما سنتحدث عنه في حينه.

هذا ولايخفى علينا الأصوات التي ترتفع بين حين وآخر ، فتصف الخلافة العثمانية بعديد من الصفات المستقاة من التصورات الغربية ، فهي دولة إستعمارية ،

(٢٧) نفسه ص ٥١.

(٢٨) نفسه ص ٤٦.

أخضعت الشعوب بالقسر والقوة ، وكبتت الحريات ، واستخدمت الأساليب الدكتاتورية في خنق أصوات المعارضة ، إلى غير ذلك من المساويء التي يعددها البعض ، انسياقا وراء كتاب الغرب ، أو التجاهل عن عمد للدور الأساسي الذي قامت به هذه الخلافة في صد أعداء الإسلام ، أو اتباعا لحملات التشويه المتعمدة التي قادتها الصحف المشبوهة.

وإذا ذكرنا المساويء : فإننا يجب أن نركز على الانحراف عن النهج الإسلامي ، مثل قتل الأقرباء خوفا من المنازعة على الحكم ، أو للتفرد بالسلطة ، أو إباحة شرب الخمور للانكشارية ، وتشجيع الصوفية ، فالواقع أن الدولة العثمانية كانت ذات عاطفة إسلامية قوية ، وإن لم تكن تستطيع إستيعاب المفاهيم الإسلامية بشكل سليم وصحيح في أحيان كثيرة ، وهذا هو الداء الحقيقي وكان العلاج يكمن في العودة إلى النهج الإسلامي لا في إبعاده نهائيا.

ولاننسى أن الدولة العثمانية قامت بخدمات للمسلمين والإسلام فاحتفظت بنظام الخلافة ، وأعادت للخليفة هيبته ، وبقيت الخلافة تحتل قوة إسلامية كبيرة تجد لها في مسلمي الهند ، وأندونيسيا ، وتركستان ، والصين ، وفي مختلف أنحاء العالم الإسلامي صدى وتأييدا كرمز لوحدة المسلمين. وكان هذا السبب الرئيسي في عداء العالم الأوروبي لها ، إذ خشيت أوربا أن تتكرر أحداث التاريخ فيعود المسلمون لمجدهم ، وعزهم ، في ظل الخلافة ، فلم يهدأ بالها حتى قضت على هذا النظام.

كانت الصهيونية وليدة الاستعمار قد لجأت بمساعدة الدول الاستعمارية للاتصال بالدولة العثمانية ، وبالسلطان عبد الحميد ، بعد أن نجحت في عقد مؤتمرها الأول في بال بسويسرا سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م، برئاسة هرتزل اليهودي النمساوي. ففي عام ١٣١٩هـ/١٩٠١م قام ثيودور هرتزل زعيم الحركة الصهيونية العالمية ،يرافقه (ايمانويل قره صو) زعيم الأقلية اليهودية التركية والحاخام (ليفي موستيه) بزيارة كانت الأولى من نوعها للسلطان عبد الحميد حاولوا أن يحصلوا على إذن يسمح فيه لليهود بالهجرة إلى فلسطين ، بصفتهم رعايا للدولة العثمانية ، كما حاولوا إغراءه بتسديد ديون الدولة العثمانية وقدرها خمسون مليونا من الجنيهات (وهي تعادل ١٥٠ مليون ليرة عثمانية.ذهبا)، وهبة مقدارها خمسة ملايين من

الجنيهات لخزينة السلطان الخاصة(٢٩) ،فرفض السلطان عبدالحميد بإباء ، وأعلن استحالة تحقيق هذا الهدف طالما هو على قيد الحياة. ومن أقواله لهرتزل لما تكرر طلبه :

« لو كنت أعلم أنك جئت اليوم تطلب في مارفضت إجابتك إليه من قبل لما سمحت لك بالدخول علي. واعلم ياهيرتسل أن فلسطين جزء من أرض الإسلام وأرض الإسلام لاتباع بالذهب والدراهم ، ولقد حصلنا على كل شبر منها ببذل دماء أجدادنا ، ولن نفرط بشبر منها قبل أن نبذل كل دمائنا دفاعا عنها »(٣٠).

فكان من نتائج ذلك أن عمل اليهود ومن والاهم ، على إسقاط عبد الحميد ، وكان من أقوى الأسلحة التي قاومت بها الدول الأوروبية حركة الجامعة الإسلامية الدعوة الإقليمية ، وإعلاء شأن الجنسية ، والوطن ، والعرق ، والعمل على تشويه سمعة السلطان ، بوسائل الإعلام المختلفة ، واتهامه بالاستبداد ، والرجعية ، والتخلف ، والفساد.

ونجح الاستعمار والصهيونية ومن والاهم في إسقاط السلطان عبد الحميد والإغراء بين العنصرين الكبيرين في الدولة وهم : الأتراك والعرب.

فكان (جلادستون) ، زعيم حزب الأحرار بانجلترا ، يلقي الخطب الرنانة ويؤلف الرسائل المطولة ناسبا إلى تركيا اضطهاد النصارى مشيرا إلى السلطان عبد الحميد بقوله : « الشيطان وعدو المسيح »(٣١).

أما لورنس العرب فقد قال في إحدى المرات(٣٢) : « علينا أن ندفع بالغرب لانتزاع حقوقه من تركيا بالعنف ... لأننا بهذا نقضي على خطر الإسلام وندفع به (أي الإسلام) لإعلان الحرب على نفسه وبذلك نمزقه من القلب ، إذ ينهض في مثل هذا الصراع خليفة في تركيا ، وخليفة في العالم العربي ، ويخوض الخليفتان حربا دينية ، وبذلك يقضى على خطر الخلافة الإسلامية بصورة نهائية ... ».

وقادت جمعية الدونمة(٣٣) (وهم اليهود الذين أسلموا تقية وعاشوا في سالونيك

---

(٢٩) علي حسون ص ١٩٢ ، أسرار الانقلاب العثماني كتبه بالتركية مصطفى طوران ، ترجمة كمال خوجة ط٤ ص ١٦-١٧.

(٣٠) من مذكرات هرتزل / علي حسون ص ١٩٢. (٣١) الدولة العلية ص ٢٣٩.

(٣٢) د. علي حسون ص ٢٦٢. كان لورنس كالحاوي يضحك على العرب ، ويحرضهم ضد الأتراك. ووصف العرب بأقبح الصفات ، فوصفهم بأنهم لاعقيدة لهم ، وأنه يمكن أرجحتهم على فكرة كما لو كانوا على حبل ، وهم دون عقيدة يمكن قيادتهم إلى زوايا العالم الأربع ، ولكنهم إذا قابلوا في الطريق دجالا أو نبيا لايلبثون أن يصدقوا وحيه ويتبعوه ، إنهم كالماء في عدم الاستقرار (انظر ادوارد سعيد ص ٢٤٨). (٣٣) السلطان عبد الحميد - مذكراتي - ص ١٠٤.

في ظل الدولة العثمانية) الحركات ضد السلطان عبد الحميد. تحت أسماء مختلفة أهمها حركة تركيا الفتاة ، وحركة حزب الاتحاد والترقي ، التي اتخذت من مقار المحافل الماسونية مراكز لها للعمل ، وخلقت حركة ضخمة سداها ولحمتها الحملة على السلطان عبد الحميد ، واتهامه بالإستبداد. وقد ساعدتها وآزرتها الطريقة البكتاشية الصوفية(٣٤) .

فقد تكونت جمعية سرية في كلية الطب العسكري في إستانبول ، وعرفت باسم جمعية الاتحاد والترقي ، تزعمها شاب إلباني اسمه إبراهيم تيمو وتأثرت هذه بحركة الكاربوناري الايطالية ، وبآراء القوميين الأتراك ، وفي مقدمتهم الشاعر الماسوني نامق كمال. المتأثرين بالمستشرقين الذين أدوا دورا خطيرا في انتباه الترك المبهورين بالغرب إلى فكرة القومية ، لتكوين البديل عن الإسلام هويتهم المميزة لهم(٣٥).

واكتسبت هذه الجمعية السرية كثيرا من الأنصار ، وانضم إليها أعضاء جمعية تركيا الفتاة. واتخذوا من جنيف مركزا لقيادة الجمعية ، وأنشأوا في باريس جريدة تمثل أراء الجمعية أسموها الميزان(٣٦).

ومع بداية القرن العشرين انتشرت جمعيات سرية كثيرة ، وخاصة في سالونيك ،باسم الوطن ، والحرية ، تتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي ، لمعارضة الحكومة العثمانية(٣٧). وتمكنت هذه الجمعيات أخيرا من الثورة سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م وإسقاط السلطان عبد الحميد سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ،

---

(٣٤) والبكتاشية طريقة صوفية ، ذات طابع سري باطني شيعي ، لعبت دورا كبيرا في التاريخ السياسي العثماني. حلها السلطان محمود الثاني بعد مذبحة الانكشارية عام ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م ، وتعقبها وسجن شيوخها ، وخرب زواياها. وتعاونت مع جمعية الاتحاد والترقي ، ومع الماسونية في سبيل القضاء على الدولة العثمانية ، وكان أعضاء تركيا الفتاة بكتاشيين ، وماسونيين في آن واحد. (انظر حول البكتاشية ماكتبه المستشرق اليوغسلافي ـ محمد موفاكو ـ مجلة العربي العدد ٢٢٠ مارس ١٩٧٧م ، دائرة المعارف مجلد ٢ ص ١٧٧)

(٣٥) برنارد لويس ـ الغرب والشرق ص ١٢٦.

(٣٦) المسألة الشرقية. د. دسوقي ص ٣١٣.

(٣٧) نفسه ص ٣١٥.

وكان قره صو اليهودي واحدا من الذين اشتركوا في خلعه وقدم له قرار العزل(٣٨).

وبدأ اليهود يقطفون الثمار بعد زوال السلطان عبد الحميد ، فاشتروا معظم الصحف التركية ، وعينوا العديد من شخصياتهم في حكومة الاتحاديين ، مثل جاويدبك الذي أصبح وزيرا للمالية ، فاستطاع تأمين بعض القروض المالية ، مما سهل أمامه مهمة التعاون مع جمعية الاتجاه الإسرائيلية في فلسطين ، واستطاع إلغاء معظم القوانين التي وضعت للحيلولة دون تسرب اليهود إلى فلسطين(٣٩) زمن السلطان عبد الحميد. وبسيطرة جمعية الاتحاد والترقي غدت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها ، قومية في عصبيتها ، بينما كانت من قبل عثمانية في مضمونها ،

---

(٣٨) ونقتطف هذه الفقرات من الرسالة التي وجهها السلطان عبد الحميد إلى شيخه بعد عزله يوضح فيها أسباب تنازله عن الخلافة :

« إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما ، سوى أنني - بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقي باسم (جون ترك) وتهديدهم - اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة.

إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف وأخيرا وعدوا بتقديم ١٥٠ مليون ليرة انجليزية ذهبا ، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضا وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي :

إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا فضلا عن ١٥٠ مليون ليرة انجليزية ذهبا فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي ، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية مايزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين ، لهذا لن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي أيضا.

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي ، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى (سلانيك) فقبلت بهذا التكليف الأخير -

هذا وحمدت المولى وأحمده لأنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشيء عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة فلسطين ، وقد كان بعد ذلك ماكان .. » نشر هذه الرسالة سعيد الأفغاني في مجلة العربي الكويتية في عددها الصادر في شهر شوال سنة ١٣٩٢هـ الموافق لكانون الأول سنة ١٩٧٢م ، ضمن مقال بعنوان : سبب خلع السلطان عبد الحميد.

(٣٩) مصطفى محمد ص ٧٢.

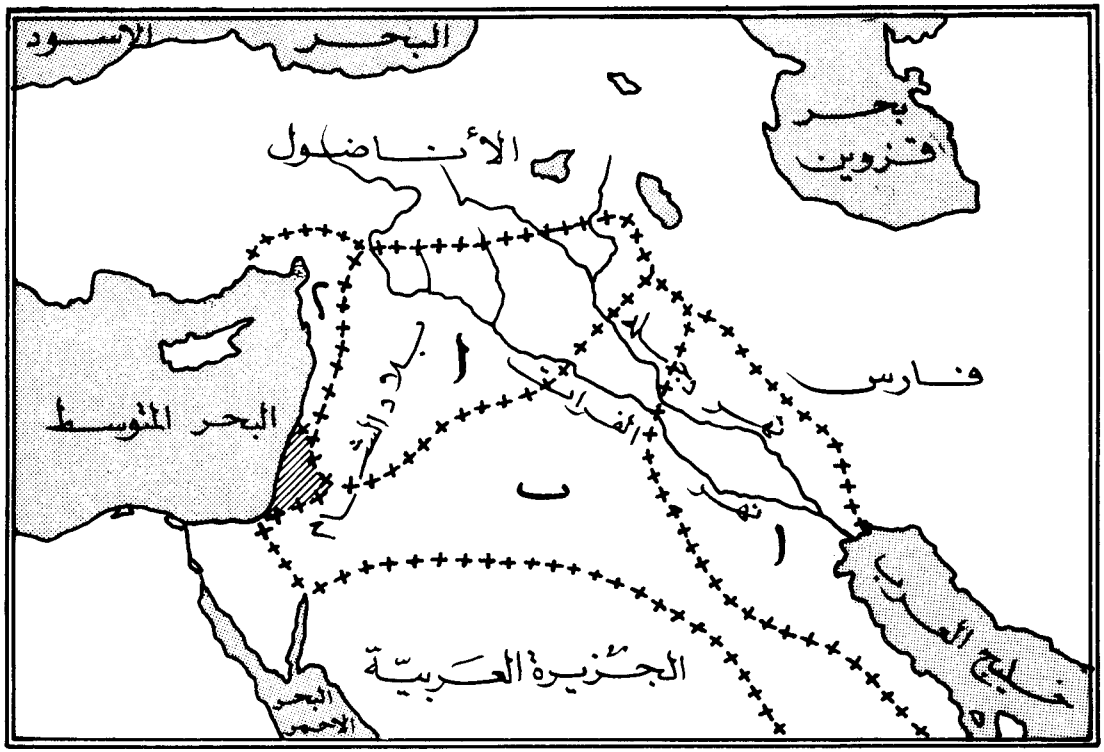

تقسيم بلاد الشام والعراق حسب اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ م

(١) لبريطانيا (٢) لفرنسا منطقة دولية

(أ) منطقة نفوذ فرنسية (ب) منطقة نفوذ بريطانية

وإسلامية في رابطتها(٤٠). فقد تأثرت هذه الجمعية بقوة الأفكار القومية **الطورانية** التي تدعو إلى تحرير جميع الأتراك. مدعين أن الشعوب الإسلامية في الأناضول وآسيا الوسطى تشكل أمة واحدة ، وهي الأفكار التي تطورت أخيرا بمجهودات الكاتب التركي الشهير ضياكوك آلب (البكتاشي وهو من أصل كردي وأطلق عليه أبو القومية التركية) فاتبعت سياسة التتريك وذلك بجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية الوحيدة ، بعد أن كانت تقف اللغة العربية إلى جانبها. فتأججت حركة الدعوة إلى القومية العربية ، في مواجهة حركة التتريك.

كون العرب حزب اللامركزية ، وتعني أن تأخذ الولايات غير التركية استقلالا ذاتيا ، وتبقى خاضعة خارجيا لاستانبول. كما كونوا جمعيات سرية ، مثل الجمعية القحطانية برئاسة عبد الكريم الخليل ، والضابط عزيز علي المصري ، والجمعية العربية الفتاة ، التي تشكلت في باريس عام **١٣٢٩هـ**، على منهج جمعية تركيا الفتاة ، ومن قبل طلاب يدرسون هناك تشبعوا بالأفكار الغربية ، وخاصة مباديء العصبية القومية ، واستعمل بعضهم المصطلحات الماسونية ، وكان قصدهم : استقلال العرب التام ، وقد نقلوا مقرهم من باريس إلى بيروت ، ثم إلى دمشق ، حيث ازداد عدد الأعضاء وخاصة من النصارى العرب.

وتكونت الجمعية الإصلاحية في بيروت عام **١٣٣١هـ** وتعاونت مع جمعية النهضة اللبنانية في المهجر ، فقدمتا رسالة مشتركة إلى حكومة فرنسا عام **١٣٣١هـ** التمستا فيها منها احتلال سوريا ولبنان ، بينما اتجه المصلحون العراقيون نحو الانجليز ، وأيد بعضهم إقامة إشراف بريطاني على برامج الإصلاح ، بل وحتى

---

(٤٠) أضاعت تركيا في فترة الأربع سنوات الأولى من حكمهم جميع ولايات الدولة الأوروبية عدا تراقيا الشرقية. فضمت النمسا ولاية البوسنة والهرسك عام ١٣٢٦هـ ، وانفصلت بلغاريا ، واحتلت ايطاليا ليبيا وجزر البحر الأبيض المتوسط ، وأخذت اليونان جزيرة كريت.

إلى بسط الحماية البريطانية على البلاد(٤١) ولما بطش الاتحاديون بأعضاء الجمعيات العربية ، قامت العربية الفتاة ، بعقد مؤتمر عربي في باريس سنة **١٣٣٢هـ/١٩١٣م** ، وقد هيأ الفرنسيون المكان المناسب لعقد الاجتماع ، وقرر المؤتمرون(٤٣) :

---

(٤١) تاريخ الدولة العثمانية د. علي حسون ص ٢٤٩.

وليس من قبيل الصدف أن نجد الرواد الأوائل نحو الأفكار القومية والوطنية من النصارى في معظمهم ، واعتبرتهم وسائل الإعلام رواد النهضة فمنهم :

١- أحمد فارس الشدياق ١٨٠١ - ١٨٨٧م/١٢١٦ - ١٣٠٥هـ في كتابه الساق على الساق. وهو لبناني من أبوين نصرانيين ، أعلن إسلامه في تونس وأسمى نفسه أحمد.بعد أن أكرمه الباي واستقدمه. وأصبح له مكانا مرموقا في تونس والآستانة.

٢- بطرس البستاني : ١٨١٩ - ١٨٨٣م ، سوري ، تربى في الدير الماروني في عين ورقة ، وعمل في القنصليتين الانجليزية والأمريكية في بيروت ، ووطد علاقته بالمراسلين الأمريكيين الانجيليين ، فاعتنق مذهبهم ، وساعدهم على ترجمة التوراة إلى العربية ،واشتغل بالتدريس في معاهدهم ، وأسس المدرسة الوطنية عام ١٨٦٣م ،وركز على الدعوة إلى الوطنية ، واعتبر سوريا وطنا واحدا.

٣- ناصيف اليازجي ١٨٠٠ - ١٨٧١م لبناني.

وقد احتضنت مصر في ظل الاحتلال الانجليزي عددا منهم مثل :

١- سليم تقلا ١٨٢٩ - ١٨٩٢م ، الذي أسس جريدة الأهرام.

٢- يعقوب صروف ١٨٥٢ - ١٩٢٧م ، وفارس نمر ١٨٦٠ - ١٩٧٢م وقد هاجرا إلى مصر عام ١٨٨٣م ، وأصدرا مجلة المقتطف التي كانت تصدر في بيروت ، كما قاما بإصدار جريدة المقطم عام ١٨٨٩م التي استمرت في الصدور إلى وفاة فارس نمر عام ١٩٥٢م.

٣- جورجي زيدان ١٨٦١ - ١٩١٤م ، مؤسس الهلال ، الذي تلقى علومه في الكلية البروتستنتية السورية. ونهج في كتابة روايات الإسلام نهج الكاتب الانجليزي وولتر سكوت ، وشوه بها التاريخ الإسلامي.

٤- فرح أنطون ١٨٧٤ - ١٩٢٢م جاء إلى القاهرة من طرابلس الشام عام ١٨٩٧م وقضى بقية حياته بين مصر ونيويورك ، رئيسا لعدة مجلات عربية أشهرها مجلة : الجامعة. ودعا إلى وضع أسس علمانية يشترك فيها المسلمون والنصارى على قدم المساواة.

وقد أنشئت عام ١٨٧٥م أول جمعية سرية لها أهداف قومية في سوريا من بعض النصارى من حلقة البستاني. وتظاهرت بالتركيز على بعث التراث العربي ، والتغني بأمجاد العرب ، وذلك وسيلة لكسب تأييد العرب المسلمين للتيارات الانفصالية عن الأتراك.

كما أسس نجيب عازوري النصراني اللبناني عام ١٩٠٤م في باريس منظمة قومية باسم رابطة الوطن العربي ، وكانت ثقافته فرنسية ، وادعى أن غاية الرابطة تحرير بلاد الشام والعراق من سيطرة الأتراك. وأصدر عام ١٩٠٥م كتابه بالفرنسية (يقظة الأمة العربية) ، واعتبر الوطن العربي منه : البلاد العربية الآسيوية. وأما مصر وشمال أفريقية فهي خارجة عنها.

(٤٣) الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص ٣٣٣.

١ـ ضرورة تنفيذ الإصلاح بسرعة.
٢ـ إشراك العرب بالإدارة المركزية.
٣ـ جعل اللغة العربية لغة رسمية في جميع الولايات العربية.
٤ـ جعل الخدمة العسكرية محلية بالنسبة للعرب إلا حين الضرورة.
٥ـ التعاطف مع مطالب الأرمن.

وواضح أن مطالبهم معتدلة ولاتدعو للانفصال عن الدولة ، وأكد الأعضاء بأن حركتهم لا دينية ، وتعادل عدد النصارى مع عدد المسلمين في المؤتمر ، وكان برئاسة عبد الحميد الزهراوي.

وقد علقت فرنسا آمالا كبيرة على المؤتمر ، وكان لها العديد من الأنصار في داخله ، ثم قامت بنشر مقرراته.

ولما وقعت الحرب العالمية الأولى(١٣٣٣ـ١٣٣٧هـ/ ١٩١٤ـ١٩١٨م)، دخلت تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط (ألمانيا والنمسا) ، في حين تمكن الانجليز (بمراسلات الحسين مكماهون)(٤٤) من جر العرب إلى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) ، فسادت فكرة القومية العربية ووقع الصدام بين العرب والترك(٤٥). وسقطت تركيا بعد هزيمتها في الحرب ، واحتل الحلفاء واليونان أجزاء منها ، ووقعت الآستانة تحت سيطرة الانجليز ، وأصبح الخليفة كالأسير فيها.

إن خلع السلطان عبد الحميد وقيام جمعية الاتحاد والترقي في الحكم كانت خطوة أساسية نحو تحقيق المخطط الذي تم أثناء الحرب وبعد الحرب في مراحل نلخصها فيما يلي :

١ـ اتفاق الحلفاء على تقسيم العالم الإسلامي الخاضع للدولة العثمانية بين الحلفاء ، تجلى ذلك في معاهدة **سايكس بيكو** سنة **١٣٣٤هـ/١٩١٦م** السرية ، في الوقت الذي وعدوا فيه العرب بالاستقلال. وأهم ماتضمنته هذه المعاهدة :

أـ أن يكون جنوب العراق لبريطانيا وأشير لها على الخريطة باللون الأحمر ، وساحل سوريا الشمالي (لبنان والساحل الشمالي من سوريا) لفرنسا. وأشير لها على الخريطة باللون الأزرق.

ب- تتكون دولتان عربيتان شمال العراق وأواسط بلاد الشام وجنوبها ، يكون

---

(٤٤) بلغ مجموع الرسائل المتبادلة بين شريف مكة و(آرثر هنري مكماهون) عشر رسائل منها خمس كتبها مكماهون ، وخمس كتبها الحسين.

(٤٥) انظر : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص ٣٧٠، ٣٩٦ـ٤٠١.

النفوذ في الأولى التي تشمل شمال العراق وشرق الأردن لبريطانيا ، والنفوذ في الثانية التي تشمل أواسط سوريا والجزيرة الفراتية لفرنسا.

ج- تكون فلسطين دولية. ولايتقرر شكلها النهائي إلا بعد استشارة روسيا ، وشريف مكة.

د- تكون الآستانة والمضائق (البوسفور والدردنيل) لروسيا.

هـ تكون الأماكن المقدسة (الحجاز) والجزيرة العربية ضمن حكومة إسلامية مستقلة.

٢- **وعد بلفور** الذي أصدرته بريطانيا للصهيونية في **١٩١٧/١١/٢م**(محرم ١٣٣٦هـ) بأن تكون فلسطين وطنا قوميا لليهود.

٣- تسليم تركيا لأبشع حركة **تغريب** وتدمير للقيم الإسلامية ، وبنقلها من دولة ذات طابع إسلامي ، إلى دولة غربية الطابع ، فيمكن القول بأن الفترة التي بدأت في تركيا بخلع السلطان عبد الحميد وتولي **الاتحاديين** للحكم هي الفترة التي اجتمعت فيها إرادة الحاكمين والاستعمار على تصفية الدولة العثمانية ، وإبراز طابع الجامعة الطوارنية ، وإبلاغ العلاقة بين الترك والعرب أشد مراحلها عنفا وقسوة ،مما مهد إلى زوال الدولة ، والتهام الغرب للأجزاء العربية ، ومنح اليهود وعد بلفور ، الذي يعطيهم الحق في إقامة دولة في فلسطين.

فقد قام الاتحاديون بتوجيه الدولة وجهة قومية لا دينية ، ولما احتل الانجليز استانبول (الآستانة) وأصبح الخليفة شبه أسير في أيديهم ، وأصبح المندوب السامي البريطاني والجنرال هارنجتون (القائد العام لقوات الحلفاء في استانبول) هما أصحاب السيادة الفعلية(٤٦) ، ظهر مصطفى كمال(٤٧) باشا بمظهر المنقذ لشرف الدولة من

---

(٤٦) علي حسون ص ٢٧٠.

(٤٧) ولد عام ١٢٩٩هـ / كان والده كما يقول (مصطفى كمال) : رجلا ضائع الفكر يقاوم علماء الدين ويؤيد الأفكار التي تتسرب من الغرب وتشبث بها. فنشأ ابنه على ذلك وتأثر بأفكار نامق كمال ذو الآراء غير الملتزمة ، وطالع العديد من الكتب عن الثورة الفرنسية وازداد اعجابه بنابليون. قام بتأليف جمعية سرية - الوطن في دمشق - ففشلت. فانضم إلى جماعة الاتحاد والترقي في سالونيك. اكتسب الكثير من طبائع الغرب وبهرت أنظاره وافتتن بحضارته ومعاييرها الفنية والاجتماعية. واهتم بحرية الجنس والعلاقات بين الرجل والمرأة. وفي عام ١٣٧٧هـ / عين قائدا لأحد الجيوش في فلسطين حيث قام بإنهاء القتال مع الانجليز فورا وبصورة تامة وسمح للعدو بالتقدم شمالا دون مقاومة وسحب قواته شمالا بعد حلب حسب مخطط متفق عليه.(انظر على حسون ص ٢٦٣-٢٦٥ والرجل الصنم).

الحلفاء واليونان الذين احتلوا إزمير بتمكين من بريطانيا سنة **١٣٣٨هـ** ، وتوغلوا في حقد صليبي دفين في الأناضول وكان الحلفاء قد عقدوا معاهدة سيفر عام **١٩٢٠م** ، جردت المعاهدة الدولة العثمانية من ممتلكاتها في أوربا سوى العاصمة وقطعة أرض صغيرة. ووضعت الممرات تحت إشراف دولي. كما فقدت الدولة كل ممتلكاتها العربية ، فوضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، ووضع العراق وفلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب الانجليزي ، وأعطيت إزمير وضواحيها لليونان وتقرر تأسيس دولة أرمنية في الأناضول الشرقي(٤٨).

فقام **مصطفى كمال** باستثارة روح الجهاد في الأتراك ، ورفع القرآن ، ورد اليونانيين على أعقابهم ، في موقعة سقاريا عام **١٩٢١م** ، وتراجعت أمامه قوات الحلفاء بدون أن يستعمل أسلحته ، وأخلت أمامه المواقع ، ولعلها كانت بداية الطعم لإظهار شخصية مصطفى كمال ، وجعلها تطفو على السطح تدريجيا(٤٩). فقد ابتهج العالم الإسلامي وأطلق عليه لقب الغازي الذي كان ينفرد به سلاطين آل عثمان الأول. ومدحه الشعراء وأشاد به الخطباء.

فأحمد شوقي قرنه بخالد بن الوليد في أول بيت من قصيدة مشهورة(٥٠):

الله أكبر كم في الفتح من عجب ياخالد الترك جدد خالد العرب

ثم يجعله في مصاف صلاح الدين الأيوبي حين يقول :

حذوت حرب الصلاحيين في زمن فيه القتال بلا شرع ولا أدب

بل وشبه انتصاره بانتصار بدر فيقول :

يوم كبدر فخيل الحق راقصة على الصعيد وخيل الله في السحب

تحية أيها الغازي وتهنئة بآية الفتح تبقى آية الحقب

فكان الناس إذا قارنوا كفاح مصطفى كمال المظفر ، باستسلام الخليفة القابع في الآستانة ، مستكينا لما يجري عليه من ذل ، كبر في نظرهم الأول ، بمقدار مايهون الثاني. وزاد في سخطهم على الخليفة ماتناقلته الصحف بإهداره دم مصطفى كمال واعتباره عاصيا متمردا. ولم يكن مصطفى كمال في نظرهم إلا بطلا مكافحا يغامر بنفسه لاستعادة مجد الخلافة ، الذي خيل إليهم أن الخليفة يمرغه في التراب تحت أقدام الجيوش المحتلة.

---

(٤٨) الشرق الأوسط الحديث ص ٢٢٢.

(٤٩) علي حسون ص ٢٤٥.

(٥٠) الاتجاهات الوطنية ج٢/٢٦-٢٧.

ولكنه لم يلبث غير قليل حتى ظهر على حقيقته ، صنيعة لأعداء الإسلام من اليهود والنصارى وخاصة انجلترا ، التي رأت أن الغاء الخلافة ليس بالأمر الهين ، وإن ذلك لايمكن أن يتم دون اصطناع بطل ، وإعطائه صورة عظيمة ، وإظهار هالة حوله ، وتصويره وكأن المعجزات تجري على يديه ، وعندها يمكن توجيه الطعنة على يديه ، بلا ألم عميق ، إذ الشعور قد تخدر من نشوة الانتصارات الزائفة. فالحلفاء أنفسهم هم الذين اصطنعوا القلاقل ، وطلبوا من السلطان إخمادها ، واقترحوا اسم مصطفى كمال لتلك المهمة ، ليصبح محط آمال الناس ، وموضع تقدير ضباط الجيش ، فتتصاعد مكانته وهيبته ، وتتدهور سمعة الخليفة ، وينحط مركز الخلافة في أعين الناس ، فالألاعيب الانجليزية لاتدرك بسهولة(٥١).

كان مصطفى كمال قد انتقل إلى أنقرة واتخذها مقرا له ، واستقبل هناك استقبال الفاتحين سنة **١٣٣٧هـ**. وكان يقول : « إن كل التدابير التي ستتخذ لايقصد منها غير الاحتفاظ بالسلطنة والخلافة وتحرير السلطان والبلاد من الرق الأجنبي»(٥٢).

وفي عام **١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م** أعلنت الجمعية الوطنية التركية قيام الجمهورية في تركيا ، وانتخب مصطفى كمال أول رئيس لها وفصل بذلك بين السلطة والخلافة ، وتظاهر بالاحتفاظ مؤقتا بالخلافة ــ فاختير عبد المجيد بن السلطان عبد العزيز خليفة ، ــ بدلا من محمد السادس الذي غادر البلاد على بارجة بريطانية إلى مالطة ، ولم يمارس السلطان عبد المجيد أي سلطات للحكم. وفي عام **١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م** قدم مصطفى كمال أعظم هدية للغرب ، وهي إلغاء الخلافة ، التي كانت في اعتبار المسلمين جميعا عقدة الصلة ، والرابطة الوثيقة ، بحسبانها قوة خاصة لهم في مواجهة الغزو الغربي ، والصهيوني ثم الشيوعي. وأخرج السلطان عبد المجيد من البلاد ، وأعلن دستورا جديدا لتركيا ، وبدأ حكم كمال **أتاتورك** كرئيس للجمهورية التركية رسميا. فأثار بذلك موجة من الاستياء الشديد عمت العالم الإسلامي. فشوقي الذي مدحه سابقا بكى الخلافة ، وهاجم مصطفى كمال في عنف ، لايعدله إلا تحمسه له بالأمس ، فيقول(٥٣) :

بكت الصلاة وتلك فتنة عابث ... بالشرع عربيد القضاء وقاح
أفتى خزعبلة وقال ضلالة ... وأتى بكفر في البلاد بواح

(٥١) د. علي حسون ص ٢٧٧.

(٥٢) نفسه ص ٢٧٩.

(٥٣) من قصيدته في رثاء الخلافة / ديوان شوقي ج١/١١٤.

وعم الاستياء المسلمين في الهند ، الذين علقوا على تركيا أملا كبيرا في الخلاص من الاستعمار البريطاني لبلادهم. بل إن عددا من زعمائهم كان قد هاجر بالفعل إلى أنقرة. واستطاع الانجليز بدهائهم أن يفرزوا الأغاخان في الهند ليتزعم فكرة إبقاء الخلافة في تركيا ، وهو نفسه الذي حاول الانجليز أن يجعلوه منافسا للسلطان عبد الحميد في زعامة المسلمين من قبل فكان ذلك سببا في هجمات صحفية في تركيا على الخلافة(٥٤).

وفشلت المحاولات التي بذلت في سبيل إحياء الخلافة الإسلامية في أي بلد من البلدان الإسلامية الأخرى ، لأن الأحوال الملائمة لذلك لم تكن متوفرة في أي بلد إسلامي آخر. وحين عرضت الخلافة على الغازي أبى أن يقبلها(٥٥) ، وقد تأكد أن مصطفى كمال كان ينفذ مخططا مرسوما له في المعاهدات التي عقدت مع الدول الغربية. فقد فرضت معاهدة لوزان سنة **١٣٤٠هـ/١٩٢٣م** على تركيا ، فقبلت شروط الصلح والمعروفة بشروط كرزون الأربع ، (وهو رئيس الوفد الانجليزي في مؤتمر لوزان) وهي(٥٦):

١- **قطع كل صلة لتركيا بالإسلام.**

٢- **إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاء تاما.**

٣- إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد ومصادرة أموال

---

(٥٤) انظر نجيب صالح ص ٣١٣.

(٥٥) المسألة الشرقية ص ٢٤٩ / د. دسوقي كان الانجليز يعارضون في ظهور الخلافة الإسلامية في أي صورة من الصور.ولكنهم - كعادتهم - لم يكونوا يصرحون بهذه المعارضة حتى لايثيروا المسلمين ويدعوهم إلى التشبث بالخلافة ، فكانوا يعملون على تعقيد المساعي المبذولة في اعادتها بوسائل ملتوية خفية. والذي يقرأ كتاب Whither Islam ص١٦٩ مثلا يستطيع أن يدرك بين سطوره شماتة الكاتب في الجهود المبذولة لإقامة الخلافة.(الاتجاهات ج٢/٥١).

(٥٦) ويعترف رضا نور في كتابه حياتي وذكرياتي ص ١١٨٨ بأن الحاخام (ناحوم) أو (ناعوم) أعلن في مؤتمر الصلح في لوزان علمانية تركيا ، بقوله : لقد أصبحت تركيا علمانية ، لقد انفض الدين عن الدولة ، وإذا تم الصلح فإننا سنقوم بوضع القوانين المدنية. ويواصل رضا نور قوله : وكانت هذه أهم نقاط الارتكاز التي اعتمدنا عليها في لوزان ، إن صفقة بيع وشراء الخلافة ، والتنازل عن الموصل قد تم بين لندن وأنقرة ، وماحضور وفد تركي إلى لوزان إلا للتمويه والتوقيع. واعترف رضا نور أن الدور الأساسي في موضوع الصلح كان قد أعطي لقره صو (حابيم ناعوم) ، فقد كان الشخص الأول في المؤتمر هو عصمت اينونو ، والثاني هو رضا نور ،إلا أن الأمور كلها كانت بيد مستشار الوفد قره صو الذي كان يجلس خلف عصمت اينونو ورضا نور ويهمس لهما بما يريد فلا يترددان في الإعلان.

الخليفة ، وتتعهد بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة.

٤- اتخاذ دستور مدني بدلا من دستور تركيا القديم.

وقد نفذ مصطفى كمال المخطط كاملا وبدأت حكومته تبتعد تدريجيا عن الخطوط الإسلامية ، وتسلم تركيا لعمليات التغريب. فألغيت وزارة المحاكم الشرعية ، ووزارة الأوقاف ، عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م وعهد بشئونها إلى وزارة المعارف ، وفي عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م أغلقت المساجد. وقضت الحكومة في قسوة بالغة على كل تيار ديني. وواجهت كل نقد ديني لتدابيرها بالعنف فقد قام **الشيخ سعيد** بحركة بعد إلغاء الخلافة ، اتخذ لها راية خضراء ، وشعارا : لتحيا الخلافة ، ولتسقط الجمهورية ، وسيطرت حركته على معظم المناطق ، وأصبحت أنقرة نفسها على وشك السقوط ، فأعلن مصطفى كمال أن الحركة كردية ، وأنها تهدف إلى إقامة دولة كردية ، وجرد عليها حملة كبيرة عام **١٩٢٥م** فاستطاع بعد مذابح رهيبة لم يعرف التاريخ لها مثيلا أن يقضي على الحركة ، بعد استشهاد أكثر من نصف مليون مسلم ، سقطوا دفاعا عن الخلافة الإسلامية(٥٧) ، ونشر محاكم الاستقلال في الأقاليم حيث كانت ترسل المعارضين إلى المشنقة لأتفه الأسباب.

وفي عام (١٣٥٠-١٣٥١هـ/ ١٩٣١-١٩٣٢م) حددت الحكومة عدد المساجد و لم تسمح بغير مسجد واحد في كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها ٥٠٠ متر ، وأعلن أن الروح الإسلامية تعوق التقدم.

وتمادى مصطفى كمال في تهجمه على المساجد فخفض عدد الواعظين الذين تدفع لهم الدولة أجورهم إلى ثلاثمائة واعظ ، وأمرهم أن يفسحوا في خطبة الجمعة مجالا واسعا للتحدث عن الشئون الزراعية ، والصناعية ، وسياسة الدولة، وكيل المديح له. وأغلق أشهر جامعين في استانبول ، وحول أولهما وهو مسجد أيا صوفيا إلى متحف ، وحول ثانيهما وهو مسجد الفاتح إلى مستودع.

أما الشريعة الإسلامية فقد استبدلت ، وحل محلها قانون مدني أخذته حكومة تركيا عن القانون السويسري عام١٣٤٥هـ/١٩٢٦م .وغيّرت التقويم الهجري ، واستخدمت التقويم الجريغوري الغربي ، فأصبح عام ١٣٤٢هـ ملغيا في كل أنحاء تركيا ، وحلّ محله عام ١٩٢٦) ميلادية.

وفي دستور عام١٣٤٧هـ/١٩٢٨م أغفل النص على أن تركيا دولة إسلامية ،

(٥٧) مصطفى محمد ص ١٠٠ وانظر الذئب الأغبر ص ٢٠٦/ الرجل الصنم ص ٤٢٢ /بروكلمان ج٥/١٦.

وغير نص القسم الذي يقسمه رجال الدولة عند توليهم لمناصبهم ، فأصبحوا يقسمون بشرفهم على تأدية الواجب ، بدلا من أن يحلفوا بالله ، كما كان عليه الأمر من قبل(٥٨). وفي عام ١٩٣٥م غيرت الحكومة العطلة الرسمية فلم يعد الجمعة ، بل أصبحت العطلة الرسمية للدولة يوم الأحد ، وأصبحت عطلة نهاية الأسبوع تبدأ منذ ظهر يوم السبت وتستمر حتى صباح الاثنين. وحرم الاحتفال بعيد الفطر والأضحى ، وطبعت طوابع بريد تمثل صورة الذئب الأغبر إله الأتراك القدماء(٥٩).

وأهملت الحكومة التعليم الديني كلية في المدارس الخاصة ، ثم تم إلغاءه بل أن كلية الشريعة في جامعة استانبول بدأت تقلل من أعداد طلابها إلى أن أغلقت عام ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م .

وأمعنت حكومة مصطفى كمال في حركة التغريب فأصدرت قرارا بإلغاء لبس الطربوش ، وأمرت بلبس القبعة ، تشبها بالدول الأوروبية.

ومنذ عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م بدأت الحكومة تفرض إجباريا استخدام الأحرف اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلا من الأحرف العربية. وبدأت الصحف والكتب تصدر بالأحرف اللاتينية، وبدأ مصطفى كمال بنفسه هو ورجال الجمعية الوطنية يعلمون طريقة الكتابة بالحروف اللاتينية. وحذف من الكليات التعليم باللغة العربية واللغة الفارسية ، وحرم استعمال الحرف العربي لطبع المؤلفات التركية ، وأما الكتب التي سبق لمطابع استانبول أن طبعتها في العهود السالفة ، فقد صدرت إلى مصر ، وفارس ، والهند ، وهكذا قطعت حكومة تركيا مابين تركيا وماضيها الإسلامي من ناحية ، ومابينها وبين المسلمين في سائر البلدان العربية والإسلامية من ناحية أخرى(٦٠) ، فكان هذا القرار من أخطر القرارات ، لأنه أدى إلى تجهيل الأمة ، بفصل الجيل الجديد عن منهجه ، وثقافته وتراثه.

وتشبها بالغرب أصدرت حكومة مصطفى كمال قانونا عام١٣٥٣هـ/١٩٣٤م يقضي بأن يحمل كل فرد اسم أسرته ،وألا يتعامل رسميا إلا بذلك الإسم مما لم يكن معروفا قبل ذلك في تركيا. وبعد أن صدقت الجمعية الوطنية على القانون الخاص بألقاب الأسر خلعت على مصطفى كمال لقب (أتاتورك) ومعناه أبو

---

(٥٨) تركيا الحديثة ص ٢٠١ ، جميل بيهم - العرب والترك ص ١٧٨.عزة دروزة.

(٥٩) الذئب الأغبر ص ٢١٥.

(٦٠) انظر ماكتبه الأمير شكيب أرسلان عن أعمال مصطفى كمال في تركيا ج٣/٣٥١-٣٥٣.

الأتراك ، وأخذ أتاتورك ينفخ في الشعب التركي روحا جديدة للاعتزاز بقوميتهم بصفتهم أسلاف الأتراك الأولين ، واستغل ماتادى به بعض المؤرخين من أن لغة السومريين أصحاب الحضارة القديمة في بلاد مابين النهرين كانت ذات صلة باللغة التركية فقال : بأن الأتراك هم أصحاب أقدم حضارة في العالم ، ليعوضهم عما أفقدهم إياه من قيم ، بعد أن حارب كل نشاط إسلامي. وأطلق الحرية لنقد الدين والتحامل عليه وانتقاصه بمختلف الوسائل والأساليب(٦١).

وعملت حكومته على الاهتمام بكل ماهو أوربي ، فازدهرت الفنون وأقيمت التماثيل لأتاتورك في ميادين المدن الكبرى كلها ، وزاد الاهتمام بالرسم والموسيقى ، ووفد إلى تركيا عدد كبير من الفنانين أغلبهم من فرنسا والنمسا(٦٢).

وعملت حكومته على إلغاء حجاب المرأة وأمرت بالسفور ، وألغى قوامة الرجل على المرأة وأطلق العنان باسم الحرية والمساواة ، وشجع الحفلات الراقصة والمسارح المختلطة والرقص. وتزوج من لطيفة هانم ، ابنة أحد أغنياء أزمير الذين كانوا على صلة كبيرة مع اليهود من سكان أزمير ، وجرت مراسم الزواج على الطريقة الغربية ، كي يشجع على نبذ العادات الإسلامية ، واصطحبها وطاف بها أرجاء البلاد وهي بادية المفاتن تختلط مع الرجال وترتدي أحدث الأزياء العصرية(٦٣).

وأمر أخيرا بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية ، ففقد كل معانيه ومدلولاته ، وأمر أن يكون الأذان باللغة التركية ومنع الحج.

لقد تجلت سياسة أتاتورك في برنامج حزبه (حزب الشعب الجمهوري) لعام **١٣٤٩**هـ مرة ، وعام **١٣٥٥**هـ مرة ثانية والتي نص عليها الدستور التركي ، وهي المباديء الستة التي رسمت بشكل ستة أسهم على علم الحزب وهي :

(القومية ، الجمهورية ، الشعبية ، العلمانية ، الثورة ، سلطة الدولة) فتم تغيير المناهج الدراسية ، وأعيد كتابة التاريخ من أجل ابراز الماضي التركي القومي ، وجرى تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية ، واستبدلت بكلمات أوروبية أو حثية قديمة. وجرى التخلي عن أهداف الجامعة الإسلامية والجامعة

---

(٦١) مثل ماكان يكتبه أحمد أغايف في جريدة (احتشام) عام ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م ، يندد بالقرآن الكريم ، ويسفه الإسلام.

(أرسلان ـ حاضر العالم الإسلامي ج١/٢١٢ ، الرجل الصنم ص ٣٤٥).

(٦٢) انظر دسوقي المسألة الشرقية ص ٤٢٨ ـ ٤٣٢.

(٦٣) علي حسون ص ٢٦٥. نجيب صالح ص ٣١٤ـ ٣١٧.

الطورانية ، والعثمانية ، في السياسة الدولية(٦٤) وأعلن أنه اتجه إلى أوروبا ، وانفصل عن العالم الإسلامي ، والعرب ، وآسيا ، وأمعنت حكومته في استدبار الإسلام ، حتى حاربت بقسوة أي محاولة ترمي إلى إحياء المباديء الإسلامية(٦٥).

وكانت خطوات الغازي هذه بعيدة الأثر في مصر ، وأفغانستان ، وإيران ، والهند الإسلامية ، وتركستان ، وفي كل مكان في العالم الإسلامي ، إذ أتاحت الفرصة لدعاة التغريب وخدام الثقافة الغربية الاستعمارية أن ينفذوا إلى مكان الصدارة ، وأن يضربوا المثل بتركيا في مجال التقدم والنهضة ، فقد هللت له صحف مصر ـ الأهرام والسياسة والمقطم ـ وكان (هذا التأييد معروف المصدر ، فقد كانت الصحف أجيرة لأكثر من نفوذ) وبررت تصرفات كمال أتاتورك ، ووافقت عما ابتدعه ، ونشرت له أقوال : « ليس لتركيا الجديدة علاقة بالدين ». وأنه ـ أي مصطفى أتاتورك : « ألقى القرآن ذات يوم في يده فقال : إن ارتقاء الشعوب لايصلح أن ينفذ بقوانين وقواعد سنت في العصور الغابرة »(٦٦).

وكان للإعلام اليهودي دور كبير في الترويج لهذه الردة ، مثلما كان له دوره البارز في تشجيع أتاتورك على البطش بأية معارضة إسلامية ، وكانت تزين له أن مايقوم به من مذابح وحشية ضد المسلمين ليست سوى معارك بطولية ، كما كانت منبرا لكل دعوات التشبه بالغرب الصليبي والمناداة بالحرية الفاجرة للمرأة التركية ، والترويج لفنون الانحلال الخلقي معتبرة أن شرب الخمر والمقامرة والزنا ليست إلا مظاهر للتمدن والتحضر(٦٧).

كل ذلك أسهم في حركة التغريب في مصر وإيران وأفغانستان. **فإيران** كانت قد فتحت أبوابها للمؤثرات الأجنبية(٦٨) منذ عهد الدولة **الصفوية** الشيعية (٩٠٦-١١٣٥هـ/ ١٥٠٠-١٧٢٢م)، فقد تعاونت مع البرتغال ثم الانجليز ، وشجع الصفويون بناء الكنائس ودخلها المبشرون والقسس.وفرضت المذهب الشيعي الاثني عشري على إيران ، واضطهدت أهل السنة ، ووقفت في وجه

(٦٤) علي حسون ص ٢٩٤.

(٦٥) الاتجاهات الوطنية ج٢//١٠.

(٦٦) وكان هذا تحديا سافرا لمشاعر المصريين الذين كانوا يعطفون على الخلافة ويتمسكون بها ، ويتمسكون بإسلامهم. (انظر الاتجاهات الوطنية ج٢/١٢-٢٤).

(٦٧) وقد امتدح برنارد لويس أتاتورك ، بالطبع ، وشبه انتصاره وزمرته بانتصار اليابان على روسيا (الغرب والشرق ص ١٧٠).

(٦٨) انظر د. عبد الله محمد الغريب ـ وجاء دور المجوس ص ٨٠-٩٥ عن إيران في ربع قرن للدكتور موسى الموسوي.

الدولة العثمانية وشغلتها فكانت أحد أسباب ضعفها.

ثم حكمت الأسرة **القاجارية** بعد الصفوية ، التي اتصفت بالعنف والتخريب ، والمذابح الدموية ، وبشكل خاص ضد أهل السنة.

كما كانت في عهدها حركات أغاخان والإسماعيلية ، والحركة البابية ، بتآمر من الانجليز والروس ، من أجل زيادة حدة الانقسامات ، فيزداد الضعف ، ويزداد تسلط الانجليز والروس على البلاد ، فشهدت البلاد الفوضى والخراب ، والنفوذين الانجليزي والروسي. وخاصة الانجليزي(٦٩).

وفي عام **١٣٤٦هـ/١٩٢٧م** ألغى **رضا بهلوي** أحكام الشريعة الإسلامية ، ووضع قانونا مدنيا ، وآخر للعقوبات ، بني على الأساس الفرنسي.

وفي عام **١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م** نصب رضا خان نفسه ملكا ، ولقب نفسه (بهلوي) ، وكان صديقا حميما لكمال أتاتورك ، وحرص على تقليده واقتفاء خطاه ، ففي عام **١٣٤٥هـ/١٩٢٦م** ألغى الحجاب الشرعي وهاجمه ، وكانت زوجته أول من كشفت عن رأسها في احتفال رسمي ، وأمر الشرطة بمضايقة النساء اللواتي يرفضن الإقتداء بملكتهن ، وخرجن محجبات.

وفي عام **١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م** قلص مادة التعليم الديني في المدارس الحكومية ، ثم جعلها غير إلزامية في المدارس الابتدائية والثانوية. وفرض اللغة الفارسية بدلا من اللغة العربية.

وتوج صداقته لأتاتورك بزيارة قام بها عام **١٣٥٣هـ/١٩٣٤م**. وفي عام **١٣٥٤هـ/١٩٣٥م** .غير اسم الدولة فأصبحت إيران بعد أن كانت فارس.

وأما ابنه **محمد رضا** فكان على صلة وثيقة مع عميل المخابرات البريطانية مسيو (براون). واصطحبه معه إلى بلاده بعد أن أنهى دراسته الاعدادية في مدرسة روزه قرب جنيف.

وفي عام **١٣٦٨هـ/١٩٤٨م** اعترف شاه إيران بإسرائيل ، وأقام علاقات متينة معها. وهكذا خطت إيران خطواتها نحو التغريب.

وكان من نتائج خطوات أتاتورك أن وجد اليأس أيضا في قلوب مسلمي **الهند وأندونيسيا** ، وتسللت الأفكار الغربية إلى حركاتهم ، وأفرد الحكم الشيوعي بمسلمي الاتحاد السوفيتي فتمكن لينين من ضرب الإسلام والمسلمين هناك وضربت آمالهم في التحرر.

---

(٦٩) انظر نوار - الشعوب الإسلامية ص ٣٣٣-٣٦٩.

وأما **العرب** فقد استمر التآمر ضدهم بعد معاهدة سايكس ـ بيكو ـ ووعد بلفور ، فاقتسم الانجليز والفرنسيون بلادهم المتبقية ، بموجب معاهدة **سان ريمو** عام **١٣٣٩**هـ/ **١٩٢٠**م ، فأصبحت العراق وشرق الأردن وفلسطين بيد الانجليز ، مع التزام بريطانيا بسياسة تهويد فلسطين لتنفيذ وعد بلفور ، وأصبحت سوريا ولبنان بيد فرنسا ، حيث قامت فرنسا بتجزئة سوريا إلى لبنان ودولة الدروز والعلويين ولواء الاسكندرونة ودمشق وحلب ، وأثارت النعرات الطائفية والقبلية!

فتمزقت أوصال العرب في كيانات متعددة ، لكل منها نظامها الخاص وحدودها الخاصة ، وحال الاستعمار والصهيونية دون التقائها في وحدة واحدة.

فكان سقوط الخلافة العثمانية أكبر انتصار للصليبية واليهودية العالمية والشيوعية ،يقول وزير المستعمرات البريطانية :

« من دواعي فرحنا أن الخلافة زالت ، لقد ذهبت ، ونتمنى أن يكون ذلك إلى غير رجعة »(٧٠).

وبذلك بدأت الأمة الإسلامية دورا جديدا من أدوار الجهاد ضد التحديات والبحث عن الذات(٧١) ، وشهد العالم الإسلامي تغيرات فكرية واجتماعية وسياسية وإقتصادية هامة ، سنتعرض لها في الباب القادم إن شاء الله.

وقبل ذلك نذكر تتابع التطور الذي حصل في **تركيا الجديدة** لنرى هل استفادت من تخليها عن الإسلام ونبذها له في حياتها القانونية والتطبيقية وتخليها عن المسلمين والتجائها إلى التغريب والغرب ؟

توفي أتاتورك عام **١٣٥٦**هـ بعد أن حقق علمانية تركيا رغم أنف المسلمين ، وبعد وفاته فاز **عصمت اينونو** برئاسة الجمهورية متابعا سياسته ، وقد التزمت تركيا الحياد في الحرب العالمية الثانية ، وعندما ظهر انهزام المحور بشكل حتمي دخلت الحرب في نهايتها إلى جانب الحلفاء ، ولكن الروس اقترحوا عليها بعد الحرب التخلي عن أراضي شرقي آسيا الصغرى ، وضم مساحة كبيرة من شمالي شرق الأناضول إلى جورجيا السوفيتية ، فتلفتت تركيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية فأقامت على أرضها القواعد العسكرية الأمريكية ، وجرى تقوية الجيش ، وارتفعت نسبة الانفاق العسكري ، وظهرت الأزمات الإقتصادية العنيفة

---

(٧٠) الغزالي ـ هموم داعية.

(٧١) انظر ـ جب ـ الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ١٥٠ـ١٥٥.

التي تزايد خطرها يوم بعد يوم ، وازداد التضخم المالي. واعترفت بإسرائيل عام ١٩٤٨م.

وفي الوقت نفسه تظاهر اينونو ببعض الاستجابة لمشاعر الناس الذين يحرصون على شعائر الإسلام فأعاد تعليم الدين في المدارس في غير ساعات الدراسة(٧٢).

وسمحت الدولة بتشكيل أحزاب علمانية جديدة فنشأ الحزب الديمقراطي عام ١٣٦٦هـ من انشقاق داخل صفوف حزب الشعب الجمهوري نفسه ، وفاز في الانتخابات بدغدغة عواطف الناس ، فقد أدرج في برنامجه الانتخابي أنه إذا تولى الحكم فسيعيد الآذان باللغة العربية ، وسيرفع الحظر عن الراغبين في الحج ، كما أنه سيعيد التعليم الديني إلى سيرته الأولى. هذا فضلا عن المحافظة على عربية القرآن. فكانت هذه أسباب نجاحه(٧٣)

وفي الوقت نفسه تبنى السياسة الأمريكية وأصبح رئيسه **جلال بايار** رئيسا للجمهورية عام ١٣٧٤هـ، كما أصبح **عدنان مندريس** رئيسا للوزراء ، وأصبح منصب رئيس الوزراء يفوق في الأهمية منصب رئيس الجمهورية. فأقام مندريس مدارس الأئمة والخطباء ، وتألفت من المرحلة الابتدائية والمتوسطة والثانوية وتهتم بالدراسات الإسلامية وتعليم اللغة العربية أساسا وأقيمت معاهد إسلامية عالية(٧٤).

فأخذت الماسونية واليهودية في العمل ، وبثت الدعاية ضد مندريس، وتزعم أحمد أمين بالمان الحملة ، وهو يهودي الأصل ، وصاحب جريدة (مليت وطن) ، وساعده أقطاب الدونمة(٧٥).

وبقيت الأزمات والكوارث الإقتصادية في ترد مستمر وتوجهت الانتقادات للحزب الحاكم ، فحل الحزب القومي (الذي ظهر عام ١٣٦٨هـ) بحجة معارضته المباديء الكمالية ، ولكنه تشكل باسم آخر هو الحزب القومي الجمهوري. وفرضت غرامات فادحة على الصحفيين الذين يحطون من قدر الحكومة ، وضيق على أساتذة الجامعات والقضاة والموظفين المدنيين بصورة عامة ، وفرضت قيود

---

(٧٢) دروزة - تركيا الحديثة ص ١١٧ ، وتحدث عن رحلته إليها عام ١٩٤٤م ، محمد جميل بيهم : العرب والترك ص ١٨١ ، وتحدث عن رحلته إليها عام ١٩٥٥م. وكلاهما أكد على حرص الناس على شعائر الإسلام.

(٧٣) جميل بيهم - العرب والترك ص ١٤٨.

(٧٤) مصطفى محمد - الحركة الإسلامية في تركيا ص ٢٣-٢٤.

(٧٥) التل - الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ص ١٠٠.

على الاجتماعات عام ١٣٧٦هـ .

ووجه الحزب الديمقراطي التهمة إلى كثير من الأبرياء بالاشتراك بما سمي : (مؤامرة الضباط التسعة) واتهمهم بالارتداد عن مباديء العلمانية والميل إلى جانب المنظمات الدينية الإسلامية.

وقد حصل بالفعل بعض التراجع عن بعض العداء ضد الإسلام بفعل الضغط الشعبي الإسلامي ، تمثل ذلك في(٧٦) :

إعادة الآذان إلى الأداء باللغة العربية ، وسمح بتلاوة القرآن الكريم بالإذاعة ، وامتد التدريس الديني إلى المدارس ، وسمح بافتتاح المدارس الشرعية ، وافتتحت كلية الدين الإسلامي في أنقرة ، وجرى بعض التراجع عن المباديء العلمانية ولكنهم أظهروا بوضوح عدم رغبتهم بالتالي في إشراك الدين بالسياسة ، واستمروا في إخماد الجماعات الإسلامية التي تنادي بالأحكام الإسلامية. وحرصوا على ماحرص عليه أتاتورك : أن تركيا جزء لايتجزأ من أوربا وأن ذلك مقدس لايجوز المساس به.

ولما خشي بعض الحاقدين على الإسلام من رفاق أتاتورك الكماليين العودة إلى الإسلام ، افتعلوا الاضطرابات وتدخل الجيش فقلب نظام الحكم سلميا عام ١٣٨٠هـ بقيادة **جمال جورسيل** ، قائد القوى البرية. وأجريت التصفيات بتهمة خرق الدستور- الكمالي(٧٧) ، ثم أصبح جمال جورسيل رئيسا للجمهورية. وظهر في خضم الاضطرابات عام **١٣٨١هـ** حزب العمال التركي وسيطر عليه الماركسيون.

وأصبحت المصادمات هي الصورة المألوفة يوميا للحياة التركية العادية. كما سادت روح التطاحن داخل حزب العدالة الحاكم ، فسقطت الحكومة عام **١٣٩٠**هـ. وتشكلت حكومة جديدة برئاسة المهندس **سليمان ديميريل** زعيم حزب العدالة بأغلبية ضئيلة. تبعها عدة انقلابات متتالية وتدخلات من الجيش حيث أصبحت البلاد مسرحا للفوضى فازداد التأخر الإقتصادي وشقاء الإنسان التركي.

هذا وقد انحازت تركيا إلى جانب **حلف شمال الأطلسي** عام ١٣٧١هـ وحصلت على العضوية الكاملة فيما بعد. فحصلت على التزامات دول حلف

(٧٦) علي حسون ص ٢٩٩.

(٧٧) الأفعى اليهودية ص ١٠٠.

الأطلسي بالدفاع عنها(٧٨) واضطرت إلى إبرام مجموعة من الاتفاقيات الثنائية بينها وبين الولايات المتحدة ، ونظمت هذه الاتفاقيات العلاقة بين القانونين التركي والأمريكي بحيث أن الأمريكي الذي يقترف جريمة في تركيا كان لايخضع إلى القانون الجنائي التركي. فعادت بذلك فكرة الامتيازات الأجنبية. ونتيجة لذلك قام الجنود الأمريكان بعدد من الجرائم في تركيا أدت إلى استياء الرأي العام التركي ضد الوجود الأمريكي. وبالتالي إلى انتشار الأفكار اليسارية. كما أدت هذه الاتفاقيات إلى انتشار معالم الفكر الغربي في تركيا عن طريق فيالق السلام التي أرسلتها الولايات المتحدة إليها ، والتي قامت بعملية الغزو الحضاري. وكانت لهذه الظاهرة آثار سلبية على التراث الإسلامي في تركيا. كما أن هذه الاتفاقيات جلبت لتركيا تقييدات خطيرة لسيادتها من حيث ترجمتها ، وتفسيرها في آن واحد ، إذ كانت هناك حوالي مائة قاعدة عسكرية أنشئت عن طريق هذه الاتفاقيات ودون معرفة المجلس الوطني الكبير(٧٩). وقد استمر هذا الوضع مع أمريكا إلى أن عدلت هذه الاتفاقيات عام **١٩٦٩م** بمباديء جديدة(٨٠). لاتختلف عن السابقة إلا في الشكل.

وكل ذلك أدى إلى انفاق تركيا مبالغ طائلة على قواتها العسكرية ، فتعرضت إلى أزمات إقتصادية خانقة. ولم يستطع مبدأ ترومان في مساعدات تركيا حل معضلات الاقتصاد التركي ، إذ كان نصيب تركيا ضئيلا بالنسبة إلى اليونان.

وحاولت تركيا الانتساب إلى السوق الأوروبية المشتركة عام **١٩٥٧م** ، وانتسبت عام **١٩٦٣م** على أن يكون ذلك على ثلاثة مراحل :

أ- التحضيرية : وفيها يلتزم السوق تقديم مساعدات لتركيا في شكل تعريفة تفضيلية وقرض مالي قدره ١٧٠ مليون دولار لمساعدة تطوير المشاريع الصناعية.

ب- الانتقالية : وفيها يتم التغيير التدريجي للإتحاد الجمركي.

ج- النهائية : وفيها يتحقق الإتحاد الجمركي في تركيا ، وتنسق السياسات الإقتصادية(٨١).

وهكذا انساقت تركيا في أحضان الغرب ، واستسلمت إليه عسكريا واقتصاديا ، وضاعت هويتها المميزة لها.

---

(٧٨) أحمد نوري النعيمي - تركيا وحلف شمال الأطلسي ص ٩. (٧٩) نفسه ص ١٤٧.

(٨٠) نفسه ص ١٥٧.

(٨١) نفسه ص ١٩٦-١٩٨.

وتظاهر عدنان مندريس بتأييد الغرب حينما أرسل الجنود إلى كوريا لمساعدة قوات الأمم المتحدة عام ١٣٧٠هـ، وعقدت تركيا اتفاق صداقة مع اليونان ويوغسلافيا سنة ١٣٧٣هـ تحول فيما بعد عام ١٣٧٤هـ إلى حلف بغداد ، بتوقيع الميثاق العراقي التركي سنة ١٣٧٥هـ ، وانضمت إليه باكستان وبريطانيا(٨٢) ،ووقع اتفاق منفصل مع الولايات المتحدة. وقد فشل حلف بغداد بثورة العراق عام١٩٥٨م . وبقيت العلاقات مع العرب فاترة. وخاصة مع سوريا التي خسرت لواء الاسكندرونة لصالح تركيا ١٩٣٩م .

الحركة الإسلامية أمام التحديات في تركيا(٨٣) :

قاد المسلمون ثورات مسلحة ضد الحكم العلماني التركي المعادي للإسلام وظهرت أهم الثورات في المنطقة الجنوبية الشرقية عام ١٣٤٤هـ، ثم في منيمين عام ١٣٤٩هـ وقد قمعها الكماليون بشدة منقطعة النظير وذهب ضحيتها عدد كبير من العلماء ، وأهملت المنطقة اقتصاديا وعلميا.

وقامت حركة النور بزعامة الشيخ **بديع الزمان سعيد النورسي** وتلامذته من بعده ، وقد كتب العديد من الرسائل الإسلامية تحت عنوان (رسائل النور) في سبيل التوعية الإسلامية ومقاومة مباديء الكماليين والعلمانية ، و لم تعمد حركته إلى حمل السلاح واقتصر جهادها على اللسان. وقد حاول أتاتورك استمالته وناقشه واستنكر دعوته الناس إلى الصلاة مدعيا أنها تثير الفرقة بين أعضاء المجلس فأجابه :

« إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإسلام إنما هي في الصلاة ، وإن الذي لايصلي خائن وحكم الخائن مردود ».

فسجنه ثم نفاه بعد أن اتهمه بمؤامرة لقلب نظام الحكم ، ولكن دعوته استمرت في الانتشار سرا بين صفوف الجامعيين ومعسكرات الجيش ودوائر الدولة ، ومثل للمحاكمة مرة أخرى بتهمة اتهامه أتاتورك بالدجال ، فوقف أمام المحكمة. ومما قال :

« إنني لأعجب كيف يتهم أناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزاته باتباعهم للسياسة والجمعيات السرية ، على حين يحق للمارقين الإفتراء على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار ، ثم يعد ذلك أمرا مقدسا لأنه حرية. أما نور القرآن الذي يأبى إلا أن يشع في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين

(٨٢) علي حسون ص ٣٠٤.

(٨٣) انظر علي حسون ص ٣٠٨-٣١١.

بدستوره ، فهو خطورة ينهال عليها جميع ألفاظ الشر والخبث والسياسة... إسمعوا يامن بعتم دينكم بدنياكم وتنكستم في الكفر المطلق : إنني أقول بمنتهى ماأعطاني الله من قوة إفعلوا مايمكنكم فعله فغاية مانتمناه أن نجعل رؤوسنا فداء لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام ... »(٨٤).

فأعيد إلى منفاه وبقي حتى عام **١٣٦٧**هـ حين بدأت الحكومة بالتراخي بخصوص النشاط الديني ، وأجازت، طباعة رسائل النور فانتشرت بسرعة ، فروع ذلك السلطات فألقي القبض عليه وأحيل للمحكمة الجزائية عام **١٣٦٨**هـ وحكم عليه بالسجن لمدة عشرين شهرا وفرضت عليه الإقامة الجبرية حتى وفاته في **٢٧** رمضان **١٣٧٩**هـ. وبقيت حركته مستمرة في تركيا(٨٥). ولكنها اتخذت صورة صوفية فيها الشيخ والمريد.

وقام أيضا حزب السلام الوطني ، الذي تزعمه السيد المهندس الميكانيكي **نجم الدين أربكان** عام **١٣٩٢**هـ. وهو ذو اتجاه إسلامي. وعن طريق اشتراكه في الحكم مع حزب العدالة ، حقق بعض المكاسب الإسلامية.

ولد البروفسور المهندس الميكانيكي نجم الدين بسينوب بأقصى شمال تركيا عام **١٩٢٦م**. ووالده محمد صبري بك.

توصل بكفاءته إلى أن أصبح رئيسا لاتحاد غرف التجارة والصناعة عام **١٩٦٨م** ، فثارت ثائرة الشيوعيين والماسونيين. واقرأ معي مانشرته صحيفة (أنت) الشيوعية بحقد تعليقا على هذا الحدث تحت عنوان (استنبول تحت رحمة الرأسماليين) :

« هناك صراع واضح في هذه الأيام في عالم التجارة والصناعة بين فئتين : فئة الرفاق الماسونيين الذين يعملون بحماية رئيس الوزراء سليمان ديميريل ، وفئة الإخوان المسلمين الذين يعملون برئاسة نجم الدين أربكان. فما هي حقيقة هذا

---

(٨٤) علي حسون ص ٣١٠.

(٨٥) ولد بديع الزمان عام ١٨٧٣م في ولاية بتلس من أبوين كرديين ، واتقن علوم اللغة والعلوم العقلية على اختلافها ، وعلم الأصول والفقه ، وعلوم القرآن. حرص على التواضع والتقشف ، وتعلم الرماية والمصارعة ، وركوب الخيل ، فكان شجاعا مقداما لايخاف ولايتردد ، ولقبه العلماء ـ بديع الزمان ـ كرس حياته لخدمة القرآن الكريم.أساء أتباعه بعده فهم عبارته : السياسة والشيطان سواء. فصار أكثرهم ضعيف الفهم في السياسة مما أوقعهم في حبائل السياسيين من حيث لايشعرون (انظر بالتفصيل مصطفى محمد ص ١٢٥ ـ ١٤٩).

الصراع ؟... »[٨٦].

أسس أربكان حزب النظام الوطني عام **١٩٧٠م** ، وأغلقته الحكومة عام **١٩٧١م** بعد ستة عشر شهرا فقط بحجة[٨٧] :

١ـ أن المباديء التي قام عليها الحزب ، وتصرفاته فيما بعد تخالف مباديء الدستور التركي.

٢ـ العمل على إلغاء العلمانية في البلاد ،وإقامة حكومة إسلامية.

٣ـ قلب جميع الأسس الإقتصادية ، والإجتماعية والحقوقية التي تقوم عليها البلاد.

٤ـ العمل ضد مباديء أتاتورك.

٥ـ القيام ببعض التظاهرات الدينية.

وتصاعدت أعمال العنف ، بعد عام **١٩٧١م** ، وزادت الاغتيالات التي بدأت باغتيال بعض الضباط الأمريكيين الذين يخدمون في القواعد العسكرية.. وانتهت باغتيال عدد لابأس به من ضباط الجيش التركي ، وزادت حوادث نسف المنشآت ، وسرقة البنوك بقوة السلاح ، وتردت حال الأمن ، فازدادت البلاد ضعفا على ضعف من الناحية الاقتصادية. ففرضت الأحكام العرفية ، وتدخل الجيش[٨٨].

وفي ظل هذه الأوضاع أنشأ نجم الدين حزب السلام الوطني عام **١٩٧٢م**.

وتمكن أن يحتل المركز الثالث في انتخابات عام **١٩٧٤م** ، فشكل مع حكومة الشعب الجمهورية الحكومية. وكان من نصيبه سبع وزارات. وقد نص الائتلاف على إطلاق الحريات العامة بما فيها الصحافة ، وإطلاق سراح المساجين السياسيين[٨٩].

والمكاسب التي حققها حزب السلامة التركي من اشتراكه بالحكم[٩٠] :

ـ فتح عدد كبير من مدارس الأئمة والخطباء.

ـ البدء ـ ولأول مرة ـ بتدريس مادة الأخلاق (وتعني الإسلام) كمادة إجبارية في المدارس.

---

(٨٦) مصطفى محمد ص ١٦٠ عن العدد ١٢٧ بتاريخ ١٩٦٩/٦/٣م.

(٨٧) نفسه ص ١٨٦.

(٨٨) نفسه ص ١٩٧.

(٨٩) مصطفى محمد ص ٢٠٣.

(٩٠) نفسه ص ٢٠٦-٢٠٧.

- الدعوة إلى تصنيع مناطق الأناضول النائية .. وتبني الصناعات الثقيلة.
- السماح للأتراك بالسفر برا إلى الحج. وكان ذلك ممنوعا.
- العفو السياسي - فلأول مرة - يتناول العفو السياسي الإسلاميين الذين كانوا يموتون في السجن ، ولايحس بهم أحد.
- التدخل عسكريا في قبرص .. وإحراز نصر عسكري.
- طالب الحزب - لأول مرة - في البرلمان وبشكل علني إعادة النظر في الماسونية وخطورتها. وبالضرب على أيدي الماسونيين.

وبالنسبة للسوق الأوروبية المشتركة أعلن الحزب رأيه بصراحة وبين أن : لامصلحة لغير اليهود في هذه السوق ، وأن تركيا هي الخاسر الأكبر من هذه الصفقة ، ودعا بدلا من ذلك إلى التعاون مع المسلمين(٩١). والتقارب مع البلاد العربية المسلمة.

ففي الجميعة العامة للأمم المتحدة في **٢٠** تشرين الثاني عام **١٩٧٤م** ساندت تركيا الأقطار العربية ، كما أنها صوتت بجانب قرار الأمم المتحدة الصادر في **١٠** تشرين الثاني عام **١٩٧٥م** حول اعتبار الصهيونية شكلا من أشكال النظرية العرقية والتمييز العنصري. ولعبت تركيا دورا مهما في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في جدة عام **١٩٧٥** ، وصوتت إلى جانب اقتراح طرد الكيان الصهيوني من الأمم المتحدة في المؤتمر المذكور.

والأكثر من ذلك أن تركيا رغبت إقامة المؤتمر الإسلامي فيها ، فعقد المؤتمر الإسلامي في استانبول عام **١٩٧٦م**.

وأمام تزايد التيار الإسلامي في تركيا قام انقلاب قادة الجيش الثاني في **١٩٨٠/١/١م** بقيادة كنعان ايفرين ، وبتأييد من أمريكا وإسرائيل(٩٢) ، واعتقل اربكان عام **١٩٨١م**.

هذا ولاتزال الحركة الإسلامية في نمو متصاعد على الرغم من ضخامة الأعداء المحيطين بها ، وجسامة الأخطار التي تواجهها من اليمين واليسار على السواء. فتركيا كسائر ديار الإسلام لن تعرف هويتها وذاتها إلا بالإسلام. فهي حاليا ليست

(٩١) نفسه ص ٢١٥.

(٩٢) نفسه ص ٢٤١. النعيمي ص ٣٠٦/ محاضرة نجم الدين أربكان عن الحركة الإسلامية في تركيا - المدينة المنورة ١٩٨٧/٢/٢٥م. وقد استعمل فيها تعبير فكر الأمة كناية عن الشريعة الإسلامية / حيث يمنع استخدامها.

بالدولة الغربية التي حلم بها مصطفى كمال ، ولاهي بالدولة المسلمة ، فهي في ضياع وتشتت. وأعاد نجم الدين أربكان الحزب بتسمية جديدة هو : (حزب الرفاه). كما أخذت الباطنية النصيرية تنشط في تركيا في مواجهة الصحوة الإسلامية. باسم الحزب الشعبي الديمقراطي اليساري وبزعامة دنيز بايفال النصيري(٩٣).

كما أن تركيا تابعت الصلات ببلاد المسلمين في عهد كنعان ايفرين واوزال. وعادت مآذن مسجد (أياصوفيا) في استنبول تردد : (الله أكبر) .. بعد أن كان حوله أتاتورك إلى متحف ، واستمر أكثر من نصف قرن كذلك !!

ثالثا : تمزق العالم الإسلامي بين التكتلات والأحلاف الدولية المعاصرة

ظروف ضرورة التكتلات الدولية المعاصرة : يتميز الزمن المعاصر بتقارب المسافات بين دول العالم ، وشعوبه ، وباتصال المجتمعات ، وبتشابك المصالح ، وتعقدها. وذلك يعود إلى : سهولة المواصلات ، البرية ، والبحرية ، والجوية. وتوافر وسائل الإعلام من : صحافة ، ومذياع ، وتلفاز ، وخيالة ، وفيديو ،واتصالات سلكية ، ولاسلكية ، وأقمار صناعية. وسهولة تبادل النقد عن طريق البنوك ، والمصارف ، والحوالات ، والشيكات. كما يتميز بالحرب الباردة بين مايسمى بالمعسكر الاشتراكي الذي تتزعمه روسيا ، ومايسمى بالمعسكر الديمقراطي الغربي الذي تتزعمه أمريكا. وبأساليب الجاسوسية المبتكرة ، والتسابق في التسلح ، والتنافس في إنتاج الأسلحة الفتاكة المدمرة ، وتكديسها ، والتفنن في إدخال التعديلات عليها. وبالقلق الناتج عن البحث وراء الماديات ، والتسابق في اقتناء الكماليات التي تغرق الأسواق مع بريق الإعلانات والدعايات وتسهيل الحصول عليها بالتقسيط!! وبخفوت الفكر الديني ، والفراغ العقدي.

كل ذلك وغيره قاد العالم (دولا وشعوبا) إلى البحث عن التكتلات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .. وإلى التنسيق بين مجموعات الدول التي تلتقي في مصالحها، لتحافظ على نفسها ، وتنمي مرافقها ، أو لتحافظ على هيمنتها على غيرها. فظهرت بذلك تكتلات مختلفة توصف بالعالمية ، والإقليمية ، والمحورية ،

---

(٩٣) انظر تفصيل ذلك : مجلة المجتمع الكويتية العدد ٨٨٨/ الثلاثاء ١٤ ربيع الأول ١٤٠٩هـ /٢٥ أكتوبر ١٩٨٨م ص ٢٤- ٢٥.

والقومية ، والقارية ،أسهم في صنع معظمها ، وخطط لها ، القوى المتنفذة في العالم ، ملبية الرغبة الملحة لدى بعض الدول ، ومن أجل المحافظة على نفوذها وهيمنتها على تلك الدول وحتى لا ينفلت حبل النفوذ من يدها. فاعتمدت معظم التكتلات على **المصلحة** دون العقيدة ، وتوزعت بينها ، الأمر الذي أضعف جهود البلاد الإسلامية ، وربطها بعهود ومواثيق مختلفة ، تتناقض في كثير من الأحيان مع عقيدتها الإسلامية ، وشريعتها. حيث ضعف صوت الإسلام ، وخفت ، في مواثيق هذه التكتلات ، وسارت الأمور لصالح الدول المتنفذة صاحبة القوة والسلطان ، وصاحبة التخطيط لمعظم هذه الأحلاف ، وأصبح العالم الثالث (والذي يعد الإسلام مرشحا لزعامته) نهبا مقسما ، موزعا على تلك الأحلاف ، والتكتلات الدولية.

وفيما يلي نبذة عن أهم هذه التكتلات والأحلاف الدولية حيث يظهر أثرها جليا على العالم الإسلامي في سياق عرضها :

أولا : هيئة الأمم المتحدة : U.N.

ظهر ضعف الدولة العثمانية المسلمة للعيان ، مع بداية القرن الرابع عشر الهجري ، وفقدت وزنها أمام الدول الأوروبية القومية المتغطرسة وخاصة روسيا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، والنمسا ، وإيطاليا. فاتجهت تلك الدول لاقتسام أملاك الدولة العثمانية فيما أسموه : المسألة الشرقية. وازداد الانتاج الصناعي لتلك الدول ، وسيطرت فيها الرأسمالية ، واشتدت حركة القوميات ، فأخذت تتسابق على المستعمرات للحصول على المواد الأولية الرخيصة الثمن ، والسوق الأعظم لاستهلاك المواد المصنعة. فأدى ذلك إلى اشتداد المنافسة بينها ، فتكونت نتيجة ذلك الأحلاف : إذ تقاربت بريطانيا وفرنسا وروسيا رغم مابينها من تنافس للوقوف في وجه ألمانيا الناشئة ، كما تقاربت ألمانيا والنمسا وإيطاليا رغم مابينها من عداء. فانقسمت أوربا إلى كتلتين متنافستين ، واشتد سباق التسلح ، ومع وجود الأزمات ـ وخاصة أزمة البلقان ـ اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى (**١٩١٤ ـ ١٩١٨م**) التي انتهت بانتصار الحلفاء وهم : بريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا (التي انضمت للحلفاء أثناء الحرب). والولايات المتحدة (التي عادت لعزلتها بعد انتهاء الحرب).

وقامت الدول المنتصرة بإنشاء عصبة الأمم ، وقد هيمنت عليها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، واتخذتها ستارا لاقتسام العالم. واعتبرتها هيئة دائمة ، تشد من أزرها

الحكومات القومية.

وتألفت **عصبة الأمم** من جمعية عمومية مؤلفة من مندوبين يمثلون الدول الأعضاء في العصبة ، تنعقد مرة كل عام لمدة شهرين في **جنيف** مقرها الدائم ، ومن مجلس كان يتكون أولا من تسعة مندوبين ، خمسة منهم ينوبون عن الدول الكبرى التي لها كراسي دائمة في مجلس العصبة ، وينعقد هذا المجلس أكثر من مرة في العام. وتعد سكرتارية العصبة (وهي هيئة دولية من الموظفين المدنيين) أعمال الجمعية والمجلس(١). كما أنها تشرف على تنفيذ أعمالها.

وقد بلغ أكبر عدد لأعضاء العصبة (ستين دولة) ، وانضمت لها روسيا عام **١٩٣٤م** ، في حين انسحبت منها اليابان عام **١٩٣٣م** ورفضت الولايات المتحدة الانضمام إليها، وكان للصهيونية نشاط كبير في تكوينها لتحقق أهدافها باسم الشرعية الدولية عن طريق هذه العصبة.

وقد حمل ميثاق العصبة بذور فشلها. فقد كانت العصبة رابطة دول ذات سيادة ، ولم تكن اتحاد دول ، وكانت القرارات يلزمها الإجماع ، وهذا أضعف مواقفها ، كما أنها لم تكن تملك القوة الضرورية لفرض احترام مقرراتها. وعملت في الغالب كأداة للحفاظ على (الحالة الراهنة) أي أنها كانت تعمل لصالح بعض الدول وخاصة فرنسا وبريطانيا(٢) ، ولم تتفق على شيء كاتفاقها ضد مصالح المسلمين.

فقد أقرت مبدأ الانتداب والوصاية ، كما اعترفت بوعد بلفور ، وأصدرت صك الانتداب على فلسطين الذي تضمن الاعتراف بوعد بلفور ، وتكليف بريطانيا بتنفيذه ، مع مشاركة الوكالة اليهودية ، فكانت شكلا من أشكال الاستعمار.

وقد فشلت العصبة فشلا ذريعا في محاولاتها منع استخدام القوة في فض المنازعات الدولية ، وفي الحد من التسلح بين الدول.

فعاد سباق التسلح ، كما عادت التكتلات والأحلاف الدولية ، فانقسمت أوربا ثانية إلى :

أ- الحلفاء : الإنجليز والفرنسيين.

ب- دول المحور : ألمانيا وإيطاليا ، وانضمت إليهما اليابان.

---

(١) فشر - تاريخ أوربا في العصر الحديث ص ٥٧١.

(٢) بيير رونوفن - تاريخ القرن العشرين ص ٣٦٧ ومابعد.

فجر ذلك إلى نشوب الحرب العالمية الثانية (**١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م**) وفي أثناء هذه الحرب ظهرت فكرة تطوير عصبة الأمم إلى اسم جديد هو : هيئة الأمم(٣). حيث ظهرت أفكار إنشائها عام **١٩٤١م** بميثاق الأطلسي بين روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وتشرشل رئيس وزراء بريطانيا.

وتلا ذلك مشاورات كثيرة أثناء الحرب بين دول الحلفاءِ وبشكل خاص : الولايات المتحدة ، وروسيا ، وبريطانيا ، وعقدت مؤتمرات بشأن إنشاء هيئة الأمم أهمها :

أ- اجتماع البيت الأبيض عام **١٩٤٢م** الذي أسفر عن تصريح الأمم المتحدة من قبل ممثلي (٢٦) دولة. ذكر فيه ميثاق الأطلسي مع إضافة الحرية الدينية(٤).

ب- مؤتمر موسكو عام **١٩٤٣م** الذي ضم : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي ، وبريطانيا ، ومثل هذه الدول : روزفلت ، وستالين ، وتشرشل. وقد اعترفوا بضرورة وضع تنظيم دولي في أول ساعة ممكنة يقوم على : مبدأ المساواة في حقوق السيادة بين جميع الدول المحبة للسلام ، وتعهدوا بفتح باب العضوية لجميع هذه الأمم صغيرها وكبيرها ، كي تعمل على كفالة السلام، والأمن الدوليين(٥).

ج- مؤتمر طهران عام **١٩٤٤م** وضم روزفلت ، وستالين ، وتشرشل(٦). وأكدوا فيه ماسبق.

د- مؤتمر (دمبرتن اوكس) : حيث اجتمع ممثلو بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة ، والصين في فندق (دمبرتن أوكس) بواشنطن عام **١٩٤٤م** ، وعملوا على وضع مشروعات تمهيدية لمنظمة دولية. ووضعوا خطوطها العريضة(٧).

هـ- مؤتمر يالطا عام **١٩٤٥م** بين روزفلت وتشرشل ، وقد بحث فيه أمر المنظمة(٨).

و- مؤتمر سان فرانسيسكو في مارس عام **١٩٤٥م** ، وقام بالدعوة إلى هذا المؤتمر كل من : روسيا ، وبريطانيا ، والولايات المتحدة ، والصين. وقد اشتركت

(٣) فشر - ص ٧٣٢.

(٤) دروزيل - التاريخ الدبلوماسي - ص ٣٤.

(٥) فشر ص ٧٣٢.

(٦) التاريخ الدبلوماسي ص ٤٥.

(٧) فشر ص ٧٣٢.

(٨) التاريخ الدبلوماسي ص ٨٠.

فيه فرنسا دون أن تكون داعية إليه باعتبار أنها لم تساهم في مؤتمر (دمبرتن أوكس) ولا في يالطا. وحضره مندوبون عن إحدى وخمسين دولة. حيث تم في ٢٦ يونيو من العام نفسه الموافقة على ميثاق الأمم المتحدة ، وأعلن عن قيام هيئة الأمم المتحدة في اليوم نفسه. واتخذت مقرها الدائم في **نيويورك (إمبايرستايت)**.

وقد تضمنت شرعة الأمم (١٩) فصلا في (١١١) مادة ، عرفت أولا مباديء المنظمة وأهدافها ، (الديباجة والفصل الأول) ، ثم وصفت مختلف الهيئات ، وكيفية سير أعمالها. وقد حددت **أهدافها** في :

١- حفظ السلام والأمن في العالم ، وذلك بمقاومة الأخطار التي تهدد السلام العالمي ، ومنع الحروب واستعمال القوة في حل المشكلات.

٢- تنظيم وتوثيق التعاون الدولي ، ومد يد المساعدة للدول المتخلفة في المجالات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والفنية.

٣- حل المشكلات الدولية والخلافات الإقليمية بالطرق السلمية عن طريق المفاوضة ، والتوفيق ، أو الوساطة ، أو التحكيم.

وتكونت هيئةالأمم المتحدة من الأجهزة الرئيسية التالية :

١- الجمعية العمومية :

وتكونت من جميع الدول الأعضاء ، التي بلغ عددها عام **١٩٨٧م** (١٥٩ دولة). ويمثل كل عضو فيها مندوبون لا يزيد عددهم على خمسة لهم جميعا صوت واحد. وتقوم الجمعية : بتوثيق العلاقات والتعاون الدولي ، وبحث المشكلات التي تؤثر في السلم ، والأمن العالمي. وتسوية الخلافات بين الدول ، والمحافظة على حقوق الإنسان وحرياته الأساسية. وزيادة التضامن الدولي في ميادين الاقتصاد ، والاجتماع ، والثقافة ، والتربية ، والصحة. وإقرار ميزانية الأمم المتحدة ، وانتخاب أعضاء وموظفي الأجهزة الأخرى التابعة لهيئة الأمم.

وتصدر الجمعية قراراتها في المسائل الهامة بأغلبية ثلثي الأعضاء الحاضرين. وتكتفي في المسائل العادية بالأغلبية العادية.

ومما يجدر ذكره أن سلطات الجمعية استشارية محضة ، فهي تدرس ، وتناقش ، وتوصي ، وتفحص التقارير ، ولا تقرر أبدا(٩). فيما عدا الموافقة على عضوية دولة من الدول.

---

(٩) التاريخ الدبلوماسي ص ١١٣.

٢ـ مجلس الأمن :

ويتكون من خمسة أعضاء دائمين هم ممثلو : الاتحاد السوفيتي ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والصين (الوطنية سابقا ، والشعبية حاليا). ومن ستة أعضاء غير دائمين يكون انتخابهم لمدة سنتين. وقد زيد عدد الأعضاء الغير دائمين فأصبح خمسة عشر عضوا.

وتصدر القرارات في المسائل الهامة بالأغلبية العددية على أن يكون منها الأعضاء الدائمين الخمسة. كما يحق للأعضاء الدائمين استعمال **حق الفيتو** (النقض) لأي قرار يعرض على المجلس. وهذا أدى إلى تسلط الدول الكبرى في هذا المجلس. وضياع أي حق ما لم يوافق هواهم جميعا.

ويقوم مجلس الأمن : بالمحافظة على الأمن والسلام في العالم بالتعاون مع الجمعية العامة (طبعا بمفهوم الدول المهيمنة) ، واتخاذ قرارات بتوقيع عقوبات اقتصادية ، أو اجراءات لمنع وقوع العدوان ، أو لوقفه ، واتخاذ إجراء حربي ضد المعتدي في ظروف خاصة. وقد وافقت جميع الدول الأعضاء على أن تضع تحت تصرف المجلس أية قوات مسلحة ، وتقدم كل تسهيلات عسكرية يطلب منها أو يتفق عليها(١٠).

٣ـ الأمانة العامة : (السكرتاريا) :

وتتألف من أمين عام تعينه الجمعية العمومية للهيئة ، ومن عدد من الموظفين.

ويمثل الأمين العام حلقة الوصل بين الجمعية العمومية ومجلس الأمن ، وبين الدول الأعضاء ذات المصلحة ، وبين مجلس الأمن والجمعية العمومية. كما تنظم أمور اللجان الأخرى.

٤ـ المجلس الإقتصادي والإجتماعي :

ويتألف من ثمانية عشر عضوا ، تنتخبهم الجمعية العمومية ، ومهمته تقديم خدمات إقتصادية ، واجتماعية ، وصحية ، وثقافية للدول الأعضاء ، عن طريق وكالات متخصصة في هذه الميادين ، يتعاون بعضها مع الآخر عن طريق المجلس الإقتصادي والإجتماعي ، الذي يقوم بدور جهاز التنسيق. ومن أهم هذه الوكالات :

منظمة الأغذية والزراعة : F.A.O ، ومنظمة اليونسكو للثقافة والتعليم

---

(١٠) فشر ص ٧٣٣.

U.N.E.S.C.O ومقرها باريس. ومنظمة العمل الدولية L.L.O . ومنظمة الصحة العالمية W.H.O والبنك الدولي للإنشاء والتعمير، ومنظمة اللاجئين الدولية U.N.R.W.A .

٥ـ محكمة العدل الدولية :

وتتألف من خمسة عشر قاضيا من كبار رجال القانون من مختلف الدول. ومركزها مدينة لاهاي في هولندة. ويعود تأسيسها إلى عام **١٩٢١م** للنظر في الخلافات بين الدول ، والمطالب التي تتقدم بها على ضوء المعاهدات والاتفاقيات الدولية القائمة.

٦ـ مجلس الوصاية :

وحل محل لجنة الانتدابات الدائمة القديمة. ويشرف على شئون المستعمرات السابقة لدول المحور (ألمانيا ، وإيطاليا ، واليابان). ويتألف من أعضاء الدول التي تتولى إدارة تلك البلدان.

وقد انضمت الدول الإسلامية المستقلة إلى منظمة هيئة الأمم منذ تأسيسها وتوقيع ميثاقها ، فضمت المملكة العربية السعودية ، وتركيا. وقبلت فيها أفغانستان عام **١٩٤٦م**. ثم انضمت إليهااليمن والأردن وألبانيا عام **١٩٤٧م** ، وأندونيسيا عام **١٩٤٨م**. كما ضمت هذه المنظمة الكيان الصهيوني في فلسطين باسم (دولة إسرائيل) التي اعترفت بها أمريكا والاتحاد السوفييتي من أول إعلانها عام **١٩٤٨م**(١١). كما انضمت إليها الدول العربية والإسلامية تباعا بعد استقلالها.

وقد عرضت القضية الفلسطينية على الهيئة مرارا ، ولاتزال ، كما عرضت عليها القضايا الإسلامية المختلفة ، والمتتبع للأحداث يجد أن هذه القضايا لاتحل في اجتماعات هيئة الأمم وقاعاتها ومناقشاتها. فهي لاتعدو أن تكون منبرا دوليا تعرض عليه مشكلات الأمم ، ومجلس الأمن مجمد بنظام الفيتو فهو غير قادر على اتخاذ قرارات في الحالات الخطيرة ، والجمعية العامة لاتستطيع أن تصدر إلا توصيات ، كما أنه من الممكن أن يطرح كل بلد مهما كان صغيرا توصيات الجمعية ، وأعمال اليهود في فلسطين ، وأعمال الحكومة العنصرية في جنوب أفريقيا ماثلة للعيان(١٢).

---

(١١) التاريخ الدبلوماسي ص ١١٧.

(١٢) نفسه ص ٤١٨.

ثانيا : مجموعة الدول ال ٧٧ :

ظهرت هذه المجموعة في إطار هيئة الأمم ، فقد دعت الأمم المتحدة إلى عقد مؤتمر للتجارة والتنمية من أجل بحث إمكانية توسيع التبادل التجاري بين الدول النامية والدول المتقدمة صناعيا. والتعاون من أجل بناء مجتمع دولي متعاون. وفي نطاق هذا المؤتمر الذي أصبح يعقد بصورة دورية تجمعت سبع وسبعون دولة من الدول النامية في قارات : آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ، وعقدت أول مؤتمراتها عام **١٩٦٤م** في مدينة نيودلهي عاصمة الهند ، وعقدت مؤتمرها الثاني في مدينة الجزائر عام **١٩٦٧م**.

وانضم لهذه المجموعة عدد من الدول النامية الأخرى حتى بلغ مجموع أعضائها عام **١٩٧٤م** خمسا وتسعين دولة. وأثرها ضئيل. ومعظم دول العالم الإسلامي أعضاء في هذه المجموعة.

ثالثا : دول حلف الأطلسي N.A.T.O

وهذا الاسم نسبة إلى شمال المحيط الأطلسي.

كان هجوم هتلر الصاعق على الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية عام **١٩٤١م** ، قد دفع روسيا إلى الانخراط في المعسكر الديمقراطي الغربي ضد ألمانيا النازية. الأمر الذي دعا إلى إعادة النظر في الوضع السياسي بين لندن وواشنطن. فقابل الرئيس الأمريكي (روزفلت) ، رئيس وزراء بريطانيا (تشرشل) في **١٤** آب (أغسطس) عام **١٩٤١م** على ظهر الدارعة الإنجليزية (أمير ويلز) الراسية في جون ـ الأرض الجديدة ـ ووضعا صكا يعتبر أول معلم ، وضع لتشكيل تضامن شعوب الأطلسي. فقد اتفقت الدولتان على(١٣) :

ألاّ تحدثا أي تغيير أرضي مضاد لأماني الشعوب. ويحق لكل شعب اختيار شكل الحكم بحرية. ولجميع الشعوب الحق في الوصول إلى المواد الأولية. وترجوان التعاون الإقتصادي بين جميع الدول.

وأن السلام بعد تقويض النازية يجب أن يكفل الأمن الدولي ، وحرية البحار ، وأعلنا عن تخفيض عام للتسلح.

هذا وقد أسفرت الحرب العالمية الثانية (**١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م**) عن ظهور قوتين غربيتين : روسيا وأمريكا. تحاول كل منهما أن تحل محل أوربا الغربية في استعمار العالم ، والهيمنة عليه. فظهرت روسيا بمظهر الحامية للنظام الاشتراكي

(١٣) التاريخ الدبلوماسي ص ٣٣.

(الأيدولوجية الشيوعية) ، وظهرت أمريكا بمظهر الممثل للنظام الديمقراطي الغربي (الأيديولوجية الرأسمالية). وقد تمت القطيعة بين النظامين عام **١٩٤٧م** لتسير كل من أمريكا وروسيا في تكوين حلف تتزعمه لاقتسام العالم. باسم المعسكر الشرقي ، والمعسكر الغربي.

وأدت القطيعة بين روسيا وأمريكا إلى خوف الدول الأوروبية فبحثت عن أحلاف وتكتلات فكان **ميثاق بروكسل** (عاصمة بلجيكا) عام **١٩٤٨م** الذي ضم دول البينولوكس الثلاثة : هولندة ، وبلجيكا ، ولكسمبورج ، وذلك باقتراح من بريطانيا وفرنسا. وقد وافقت الحكومات الثلاثة على معاهدة لمدة خمسين سنة ، وتنص على معونة عسكرية آلية في حالة عدوان ضد أحد موقعيها في أوربا ، وعلى تبادل المشورة في حالة عدوان في قارة أخرى. أو في حالة تهديد ألمانيا لأي منها ، كما أكدت على منع وقوع الأقطار الأوروبية تحت النفوذ السوفييتي ، ونصت على إنشاء مجلس استشاري ينعقد بناء على طلب أحد الأعضاء. وتضمنت تقوية الروابط الثقافية والتبادل التجاري بين هذه الأقطار(١٤).

كما ظهرت الرغبة عندهم في التعاون مع الولايات المتحدة التي وضعت شرطا هو (التنظيم المسبق في أوربا لسياسة الدفاع ضد كل عدوان من حيث أتى)(١٥). فبدأ الكلام عن ميثاق أطلسي محتمل ، يضم اتحاد بروكسل والولايات المتحدة وكندا.

وفي الوقت نفسه كانت الدول الإسكندنافية : النرويج ، والسويد تفكر في تحقيق ميثاق خاص. وفي جنوب أوربا اقترح تسالداريس وزير خارجية اليونان على بيفن (رئيس وزراء بريطانيا) إشراك انجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا ، وايطاليا ، واليونان للدفاع عن البحر المتوسط(١٦) وهكذا تهيأ الأمر لميثاق الأطلسي بزعامة أمريكا. فنقح النص الكامل للميثاق في **٨** آذار (مارس) عام **١٩٤٨م** ، ووصل إلى باريس ثم إلى لندن حيث تناقش به مجلس الخمسة الاستشاري في لندن دون إدخال تعديل عليه ، وحضر المجلس وزراء الخارجية للدفاع الوطني والمالية الموقعين على معاهدة بروكسل. وفي **١٥** آذار دعا الخمسة والولايات المتحدة وكندا : النرويج والدانيمارك ، وأيسلندا ، والبرتغال إلى الاشتراك في الميثاق(١٧). وفي

(١٤) النعيمي ص ١٧ ، والتاريخ الدبلوماسي ص ٢١٥.

(١٥) التاريخ الدبلوماسي ص ٢١٦.

(١٦) التاريخ الدبلوماسي ص ٢١٨.

(١٧) نفسه ص ٢١٨.

نيسان (إبريل) عام **١٩٤٩م** تم توقيع الحلف في واشنطن من قبل اثنتي عشرة دولة هي : الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وايطاليا ، وهولندا ، وبلجيكا ، ولكسمبورج ، والنرويج ، والدانيمارك ، والبرتغال ، وكندا ، وأيسلندا.

ثم انضمت لهذا الحلف تركيا واليونان عام **١٩٥٢م** ، وألمانيا الغربية عام **١٩٥٥م**(١٨).

وواضح من بيان الدول المشتركة في هذا الحلف أن العامل الاستراتيجي العسكري هو المعيار الحاسم في عضويته ، وليس العامل الإقليمي كما قد يوحي بذلك اسمه ، فالحلف كما نلاحظ يضم دولا تترامى في قارتين: من تركيا واليونان في المشرق ، وهما دولتان غير أطلسيتين، إلى أمريكا وكندا في الغرب مرورا بمعظم أوربا الغربية سواء أطلت على الأطلسي أم لا . وهذا الحلف لايضم دول أمريكا اللاتينية أو أفريقيا الأطلسية. فالقصد من الحلف كان إقامة حزام أمان واحد قبالة الإتحاد السوفييتي(١٩).

وادعى منشئوا هذا الحلف أن طابعه دفاعي ، وأنه موجه ضد خطر العدوان الشيوعي على أوربا الغربية. وأعربت دوله عن الثقة بأهداف هيئة الأمم ومبادئها ، ونصت مقدمته على رغبة المتعاقدين في السلام ، والتصميم على حماية النظام الديمقراطي - النموذج الغربي - بالقوة.

وتعد البنود العسكرية الأساسية من بين بنوده : ففي المادة الرابعة يميز بين التهديد والعدوان ، ففي حالة التهديد تتشارو الأطراف ، ويكفي لتعريف التهديد أن يصرح أحدهم أنه موجود.

وأما المادة الخامسة والتي تعتبر من أهم مواد هذا الحلف كلها فقد ذكرت أن أي عدوان مسلح يقع على دولة من دول حلف الأطلسي يعتبر عدوانا ضد كل الدول المتحالفة. ويتعين في هذه الحالة اتخاذ ماتراه ضروريا من الإجراءات القادر ة على مقاومة العدوان بما في ذلك بالطبع استخدام القوة. وتقوم دول الحلف بالإبلاغ عن العدوان والترتيبات التي اتخذت في مواجهته إلى مجلس أمن الأمم المتحدة. ليقوم بواجباته المنصوص عليها في الفصل السابع من الميثاق.

كما يخضع البند الثامن في المعاهدة جميع الاتفاقيات الأخرى الدولية وبالتالي كل

---

(١٨) الموسوعة ص ٦٦.

(١٩) محمد عبد العزيز شكري - الأحلاف والتكتلات ص ٤٥.

سياسة مشتركي الناتو الخارجية لأحكام هذه المعاهدة(٢٠).

ودخل الميثاق حيز التنفيذ في **٢٤** آب (أغسطس) عام **١٩٤٩م** ، وأنشيء مجلس عسكري لتحقيق أغراضه ، وقيادة عامة للحلف. وتؤمن إدارة العمليات العسكرية (الوحدة الاستراتيجية الدائمة) وتتألف من ممثلين من الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وفرنسا. وتحت أمرها خمس وحدات إقليمية للعمليات : كندا ـ ـأمريكا ، وشمال الأطلسي ، والشمال الأوروبي ، والغرب الأوروبي ، والجنوب الأوروبي للمتوسط الغربي.

وعين الجنرال دوايت إيزنهاور قائدا أعلى في أوربا عام **١٩٥٠م**. كما خولت السلطة التنفيذية إلى مكتب دائم دعوه : (مكتب الثلاثة عقلاء) عام **١٩٥١م**(٢١).

وتحول الحلف إلى أداة كبلت بواسطتها الدول الأخرى الداخلة فيه بقيود التبعية العسكرية للولايات المتحدة. كما حولت إلى رؤوس جسور لمرابطة القوات الأمريكية. وإقامة القواعد النووية ، وغيرها من القواعد العسكرية الأمريكية. وإلى مصادر للموارد البشرية والأسلحة الإضافية المطلوبة للاستراتيجية الأمريكية(٢٢). فقد تحدث الجنرال الأمريكي (جرونتر) بعد إنشاء الحلف فقال : « يحلو لنا ذلك ، أم لا ، ولكن رداء قيادة العالم يقع على أكتافنا ، ونجاح هذا الحلف سيتوقف على مقدار مانستطيع تحقيق هذه القيادة »(٢٣).

وقد قام الاتحاد السوفييتي بحملات عنيفة على هذا الحلف وهاجمه بشدة بالصحافة والإذاعة(٢٤). وذلك بهدف ضم الدول الأخرى إلى جانبه. الأمر الذي يدعونا إلى القول مطمئنين : أن اتفاقا سريا حصل بين مايسمى بالعملاقين لاقتسام العالم ، وكبت القوى التي يمكنها الوقوف أمام كل منهما وخاصة الإسلام. وقد تحولت أمريكا بموجب هذا الحلف إلى شرطي يفرض هيمنته على العالم ، ويتدخل في كل قضاياه صغيرها أوكبيرها. وأمام ذلك انسحبت فرنسا عام **١٩٦٦م** رسميا

---

(٢٠) تاريخ السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي ج٢/٢٠٢ ، وانظر عزيز شكري ص ٤٦.

(٢١) وكانوا عام ١٩٥١م هاريمان عن الولايات المتحدة ،وغيتسكيل عن بريطانيا ، وجان موليه عن فرنسا.

(٢٢) تاريخ السياسة الخارجية ج٢/٢٠٢.

(٢٣) نفسه ص ٢٠٤.

(٢٤) نفسه ص ٢٠٥.

من الجهاز العسكري تبعا لسياسة ديغول في أن يكون لأوربا وجود مستقل عن أمريكا ، والاتحاد السوفييتي ، فانتقل مركز الحلف من باريس إلى بروكسل. وألغيت الإدارة التنفيذية للجنة العسكرية وأوجدت جهازا جديدا أطلق عليه اسم (الهيئة العسكرية الدولية)(٢٥).

ومن حلف الأطلسي انبثقت : (منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية) E.C.D.O بقصد ربط دول أوربا الغربية بعجلة الاقتصاد الأمريكي. ومنافسة للسوق الأوروبية المشتركة. وضمت إلى جانب دول الحلف بعض الدول المحايدة مثل : النمسا ، والسويد ، وسويسرا ، وفنلندا ، ويوغوسلافيا.

والواقع أن الحلف أكد انقسام العالم إلى كتلتين متناهضتين ، وشدد رياح الحرب الباردة التي أوقعت الخوف في قلوب الدول الأخرى الصغيرة فدفعتها إلى الإنضمام لأحد الكتلتين. كما أن ذلك أدى إلى التسابق في التسلح. وانفاق الملايين على التسلح المدمر. كما استخدم في قمع الحركات التحررية في بلاد المسلمين خاصة على نحو ماجرى إبان الثورة الجزائرية. وعلى نحو ماجرى بعد ذلك في المستعمرات البرتغالية في أفريقيا. حيث استخدمت أسلحة الحلف وخبراته في اغتيال الآلاف من البشر الطامحين للتخلص من عبء الرجل الأبيض(٢٦).

رابعا : دول حلف وارسو THE WARSOW PACT :

نسبة إلى وارسو عاصمة بولندة (بولونيا).

كان الاتحاد السوفييتي قد سيطر أثناء الحرب العالمية الثانية ومابعدها مباشرة على أوربا الشرقية سيطرة كاملة. حيث شملت عام **١٩٤٨م** : ألمانيا الشرقية ، وبولندة ، وتشيكوسلوفاكيا، وهونغاريا ، ويوغوسلافيا ، وألبانيا ، وبلغاريا ، ورومانيا. وربطت روسيا هذه البلدان بها بمعاهدات ذات طابع سياسي وضعت أولياتهازمن الحرب(٢٧) ، أطلقت عليها اسم (علاقات الصداقة والمساعدة المتبادلة بين الاتحاد السوفييتي ودول الديمقراطية الشعبية)(٢٨). واعتمدت على قيام أنظمة شيوعية مخلصة لموسكو ، وركز على دكتاتورية البرولوتاريا (الطبقة العاملة)(٢٩) ،

---

(٢٥) النعيمي ص ٢٦.

(٢٦) عزيز شكري ص ٥٦.

(٢٧) التاريخ الدبلوماسي ص ٢٣٥.

(٢٨) تاريخ السياسة الخارجية ص ٧٠.

(٢٩) نفسه ص ٧٦.

واعتمدت في الحكم على القهر ، والتضييق ، وكبت الحريات على مختلف أشكالها وألوانها.

وبعد القطيعة بين روسيا وأمريكا عام **١٩٤٧م** أشرفت روسيا على عقد معاهدات بين الدول التي تسير في فلكها ، بعضها مع بعض(٣٠). كما عقدت مع الصين الشيوعية معاهدة للصداقة والتحالف والمساعدة المتبادلة عام **١٩٥٠م**(٣١) ، وأنشأت جمهورية ألمانيا الشرقية عام **١٩٤٩م**(٣٢). وأخذت تصدر الشعارات الاشتراكية إلى بلاد الإسلام ، باسم التقدمية ومحاربة الرجعية والاستعمار والرأسمالية ، فاستهوت كثيرا من الناس ، وخفت صوت الإسلام ، وضرب المسلمون ضربات موجعة تحت اسم هذه الشعارات في بلاد الإسلام التي في الاتحاد السوفييتي ، وفي يوغسلافيا ، وأوربا الشرقية ، والصين ، ومصر ، وأندونيسيا ، والهند الصينية. ثم في أقطار إسلامية أخرى.

ولما وقع ميثاق حلف الأطلسي حمل الاتحاد السوفييتي مع منظومته الاشتراكية عليه بشدة ونظم مؤتمرا في موسكو عام **١٩٥٤م** يبحث الأمن الأوروبي ودعا إليه البلاد الغربية : بريطانيا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة ، فرفضت. وعليه فقد اشتركت منظومة الاتحاد السوفييتي في هذا المؤتمر وحدها.

وأعلن التصريح الختامي لهذا المؤتمر « بأن الموقعين في حال تصديق المعاهدات التي تستأنف فيها ألمانيا الحياة العسكرية على استعداد لاتخاذ إجراءات مشتركة تتعلق بتنظيم قواها المسلحة وقيادتها(٣٣)».

ثم أخذ الاتحاد السوفييتي بفسخ معاهدات تحالفه مع بريطانيا وفرنسا.

وفي عام **١٩٥٦م** قام بعقد مؤتمر وارسو للكتلة التي دعاها (الشرقية) بزعامته. وأسفر هذا المؤتمر عن توقيع معاهدة حلف وارسو بين ثمانية بلاد من تلك التي تسير في فلكه ، وتأتمر بأمره. وهي بالإضافة إلى الاتحاد السوفييتي : بولنده (بولونيا) ، وتشيكوسلوفاكيا ، وألمانيا الشرقية ، ورومانيا ، وبلغاريا ، وألبانيا ، وهونغاريا.

وبنود الميثاق نسخة عن ميثاق الأطلسي وتنص مادته الخامسة على : « تنظيم

---

(٣٠) نفسه ص ٧٢.

(٣١) نفسه ص ٧٤.

(٣٢) نفسه ص ٧٦.

(٣٣) التاريخ الدبلوماسي ص ٣٣٩.

قيادة عسكرية موحدة ، يعهد بها إلى الماريشال السوفييتي كومنيف »(٣٤).

وحلف وارسو لم يغير من واقع الكتلة العسكرية الشرقية ، ولكنه أعطاها معنى مؤثرا ، وكرس انقسام العالم إلى كتلتين ،وألقى الرعب في قلب من كان يحاول أن يقف في وجه الكتلتين. وقد هاجمته أمريكا بالدرجة نفسها التي هاجم بها الاتحاد السوفييتي حلف الناتو ، وذلك للعمل على جر الدول الأخرى إلى السير في مخططاته ، والارتماء في أحضان إحدى الكتلتين. كما أن هذا التنظيم العسكري أضفى مسحة من الشرعية على الوجود السوفييتي في شرق أوربا ، وجعل من الصعب على الدول الأعضاء فيه أن تنسحب منه ، لأن الانسحاب يقابل بمقاومة القوة المجتمعة لدى دول الحلف. كما حدث لمأساة تشيكوسلوفاكيا عام **١٩٦٨م**(٣٥).

خامسا : السوق الأوروبية المشتركة :

المجموعة الاقتصادية الأوروبية E.E.C :

كانت فرنسا قد فقدت دورها الاستعماري ، ونفوذها بعد الحرب العالمية الثانية أمام الكتلتين الشرقية ، والغربية ، فقامت بمشاريع للعمل على تكتل أوربا لإعادة دورها. فتكونت بجهودها (مجموعة الأسرة الأوروبية للفولاذ والفحم) عام **١٩٥١م** ، من دول : فرنسا ، وألمانيا الغربية ، وايطاليا ، وبلجيكا ، ولوكسمبورج ، وهولندة(٣٦). واتخذت لوكسمبورج مركزا لها.

وانبثقت من هذه الأسرة فكرة (الدمج الأوروبي). حيث تكونت (جمعية مختصة) ، تألفت من جمعية أسرة الفولاذ والفحم،ومن تسعة أعضاء. وكلفت عام **١٩٥٢م** بتحضير دستور سياسي أوروبي.وتبنت هذه الجمعية مشروع معاهدة يتضمن نظام الأسرة الأوروبية ذات الطابع(فوق القومي) يكون لها نظام:برلمان من مجلسين نواب وشيوخ ، ومجلس تنفيذي مسئول أمام البرلمان ، ومجلس وزراء وطنيين ومحكمة عدل ، ومجلس اقتصادي واجتماعي. ولكن المشروع اصطدم بتحفظات كثيرة فتراجعت عنه فرنسا عام **١٩٥٤م**(٣٧).وعادت إلى أسلوب التكتل الاقتصادي. فاجتمع مؤتمر الوزراء الستة في مسينا عام **١٩٥٥م** ، وأعقب هذا الاجتماع ثمانية

---

(٣٤) نفسه ص ٣٤٠.

(٣٥) محمد عزيز شكري ص ٧٤.

(٣٦) التاريخ الدبلوماسي ص ٢١١.

(٣٧) نفسه ص ٣٦٢.

اجتماعات أخرى أسفرت في النهاية عن وضع مشروع (**السوق الأوروبية المشتركة**) في الاجتماع الثامن بروما عام **١٩٥٧م**. ووقعت المعاهدة. ووافقت اللجنة على نقطة ركزت عليها فرنسا وهي : (إدخال ماوراء البحار في السوق المشتركة). وقد تولى أمرها سلطة عليا هي : **مجلس الوزراء** ، ويساعده لجنة أوروبية تتألف من خبراء تكلف بتحضير عمل الوزراء. وأصبحت السوق الأوروبية المشتركة ، والأسرة الأوروبية للفولاذ والفحم مؤلفة من (١٤٢) برلمانيا ، تعطي آراءها بأكثرية الثلثين في مراقبة اللجنة الأوروبية وتساعدها : اللجنة الاقتصادية والاجتماعية ، واللجنة النقدية ، وتوجد محكمة عدل ، وبنك أوروبي للتوظيف برأسمال قدره مليار دولار(٣٨).

وأعلنت المجموعة **أهدافها** في :

أ- ازالة التعرفة الجمركية بين الدول الأعضاء تدريجيا وعلى مراحل وضحتها وبينتها ، وسارت في تطبيقها.

ب- إقامة تجارة حرة فيما بين دول السوق ، وفتح الحدود تدريجيا لحركات العمال ، ورؤوس الأموال.

ج- وتخضع بلاد ماوراء البحار التي تقبل في هذه المجموعة للتجربة لمدة خمس سنوات.

ووقعت سبع دول أوروبية على ميثاقها هي : فرنسا ، وألمانيا الغربية ، وايطاليا ، وهولندة ، وبلجيكا ، ولوكسمبرج ، والدانيمارك. وانضمت لها ايرلندا عام **١٩٦٣م** ، وبريطانيا عام **١٩٦٧م** وكانت **بريطانيا** قد تزعمت منافسة هذا السوق في بداية الأمر وكونت : (**الرابطة الأوروبية للمبادلة الحرة**) بزعامتها عام **١٩٥٩م** السوق الأوروبية (بالحصار القاري). وتكونت الرابطة من : بريطانيا والدانيمارك ، والنرويج ، والسويد ، والبرتغال ، والنمسا ، وسويسرة. ولكن الرابطة فشلت لعدم تجانسها ، وتباعدها الجغرافي(٣٩) ، ثم لاتجاه زعيمتها بريطانيا ، للسوق الأوروبية المشتركة.

هذا وقد حققت **السوق الأوروبية** النجاح على أكثر من صعيد ، وأصبحت واضحة الأثر في الحياة الأوروبية اليومية ، رغم ماكان بين دولها من تاريخ دموي حافل بالحروب ، والضغائن ، والإثارة منذ ماقبل حروب نابليون إلى الحرب العالمية

---

(٣٨) التاريخ الدبلوماسي ص ٣٦٥.

(٣٩) تاريخ عصرنا ص ٢١٤.

الأولى ثم الثانية(٤٠). فقد نجحت هذه الدول في تأمين أرضية مشتركة لتنسيق الأهداف والبرامج ، ودمج المصالح ، ومنع التعارض والتضارب والتنافس فيما بينها. فأدى ذلك إلى تحقيق نوع من التكامل الاقتصادي الأوروبي ، الذي أدى بدوره إلى نوع من التطور السياسي والعسكري بحيث أصبحت السياسات الدفاعية والخارجية ، والداخلية لمختلف دول السوق شبه موحدة(٤١). وتسير أوربا الغربية عن طريق السوق بخطوات عملية إلى تحقيق الوحدة بين أقطارها.

ونرى في الآونة الأخيرة (ويالللأسف) تهافت أكثر من دولة من دول الإسلام على طلب الانضمام إلى السوق الأوروبية بهدف الإفادة من عضويتها الآنية ، دون النظر إلى أبعاد ذلك على التأثيرات على عالم الإسلام ، واستغلاله لمصالح تلك الدول الصناعية. التي نجحت في التحكم في أسعار المواد الأولية التي في معظمها في بلاد الإسلام ، كما نجحت في رفع أسعار المواد المصنعة المصدرة إلى بلاد الإسلام ، فأثر ذلك كثيرا على أوضاع بلاد المسلمين وعلى نقدها.

سادسا : دول الكومنولث Common Wealth

ابتكرت **بريطانيا** نظام الكومنولث (رابطة الشعوب التي تتكلم الانجليزية) لتحافظ على نوع من السلطة على البقاع التي كانت تسيطر عليها. وبدأت تكوينه مع كندا عام **١٨٦٧م** بعد أن نجحت في صد الولايات المتحدة عنها(٤٢).

وبعد الحرب العالمية الأولى رسمت سياسة أسمتها : **(التفضيل الامبراطوري)** لتحقيق لون من ألوان الاكتفاء الذاتي الاقتصادي والسياسي بالتضامن مع مستعمرات **الدومنيون** ، ومستعمرات **التاج**. وبينت هذه السياسة في مؤتمر رؤساء وزارة الإمبراطورية الذي عقد في اوتاوة (كندا) عام **١٩٣٢م**. وكانت الأراضي الخاضعة للتاج البريطاني تنتمي لثلاثة أقسام وزارية كبيرة حتى عام **١٩٤٤م** هي :

أـ **وزارة الدومنيون** : وتشرف على كندا ، واستراليا ،وزيلندة الجديدة ، واتحاد جنوب افريقيا ، ودولة إيرلندة الحرة. وكان لجنوب أفريقيا وضع خاص إذ وضع لها نظام عام **١٩٢٦م** على أساس المساواة ، والاستقلال الذاتي ، والولاء للتاج البريطاني.

وأخيرا تحررت تلك الدول من كل رقابة بريطانية ، ولكنها بقيت تقيم مع

---

(٤٠) موسوعة إسلامية ص ٤٤.

(٤١) نفسه ص ٤٨.

(٤٢) تاريخ عصرنا ص ٩٤.

بريطانيا علاقات خاصة. فتحولت وزارة الدومنيون إلى : (وزارة الشئون الخارجية المكلفة بعلاقات مع الأسرة).

ب- **وزارة الشئون الهندية** (مع وزارة برمانيا الملحقة بها) وكانت تدير سياسة الهند ، ومسئولة أمام برلمان وستمنستر عن حكومة الهند ، وتتخذ القرارات مباشرة دون الرجوع إلى زعماء البلاد ، مع أن بريطانيا كانت وقد وعدت الهند بنظام الدومنيون منذ عام **١٩١٧م**.

ج- **وزارة المستعمرات** : وكانت تشرف على مستعمرات بريطانيا في أفريقيا ، وجنوب شرق آسيا ، وجزر الهند الغربية ، والمحيط الهادي ، والبحر الأبيض المتوسط ولم يعرض على بساط البحث تحويل هذه المستعمرات إلى دومنيون.

فالكومنولث ضم البلاد التي تشرف عليها وزارة الدومنيون ، والتي أصبحت عام **١٩٤٤م** ذات سيادة كاملة.

وقد مر الكومنولث بعصره الذهبي بين عامي **١٩٢٧- ١٩٥٤م** ، وأطلق عام **١٩٤٧م** على وزارة الدومنيون اسم (وزارة العلاقات مع الكومنولث). وهي التي ورثت عام **١٩٦٦م** جميع علاقات المملكة المتحدة مع بلاد امبراطوريتها القديمة ، قبل أن تنصهر عام **١٩٦٨م** مع وزارة الخارجية(٤٣). فأصبح الكومنولث يدل على رابطة حرة مستقلة ومتساوية ضمت عام **١٩٦٨م** : المملكة المتحدة ، وكندا ، واستراليا ، وزيلندة الجديدة ، والهند ، وباكستان ، وسيلان ، وغانا ، وماليزيا ، ونيجيريا ، وسيراليون ، وقبرص ، ومالطة ، وتانزانيا ، وجاماكيا ، وترينداد ، وتوغو ، وأوغندة ، وكينيا ، ومالاوي ، وزامبيا ، وغامبيا ، وسنغافورة ، وغوايانا ، وليسوتو ، وبوتشوانا ، وبارباد ، والمالديف ، وناورد ، وساموا الغربية ، وجزيرة موريشيوش ، وسوازيلاند. كما يدل على توابع المملكة المتحدة ، وبعض المستعمرات أو المحميات.

هذا وقد أضيف إلى حق الاشتراك في الكومنولث حق الخروج منه ، كما فعلت بورما (برمانيا) عام **١٩٤٨م** ، وايرلندة عام **١٩٤٩م**. وانضمت الهند وسيلان عام **١٩٤٩م** ، وباكستان عام **١٩٤٨م**(٤٤).

ولم يكن للكومنولث سلطة تنفيذية اتحادية ، ولاسلطة تشريعية فكانت بريطانيا

---

(٤٣) تاريخ عصرنا ص ٩٥.

(٤٤) نفسه ص ٩٥.

هي المهيمنة عليه. وشهد ضعفا شديدا بعد عام **١٩٦٨م** لأسباب نوجزها فيما يلي :

١ـ التنظيمات الجديدة التي شهدتها أوربا ومواثيقها العسكرية.

٢ـ نفوذ الولايات المتحدة وروسيا ودورهما في محاولات الحلول محل النفوذ البريطاني والفرنسي. والتكتلات الجديدة التي تزعمتها روسيا والولايات المتحدة.

٣ـ ظهور كتل أخرى بمساندة الولايات المتحدة وغيرها مثل : ميثاق دفاع بين : استراليا ، وزيلندة الجديدة ، والولايات المتحدة. ومنظمة معاهدة جنوب شرق آسيا التي ضمت : أندونيسيا ، وتايلاند ، والفلبين ، وماليزيا، وبروني ، وسنغافورة.

٤ـ سياسة التمييز العنصري في أفريقية الجنوبية ، وموقف بريطانيا الحرج في ذلك أمام دول الكومنولث.

٥ـ الاعتداء الثلاثي على مصر ـ عملية السويس ـ عام **١٩٥٦م** ، حيث اشتركت بريطانيا مع فرنسا ودولة اليهود في مهاجمة مصر. فسبب ذلك تصادمات عنيفة بين بريطانيا وأعضاء دول الكومنولث.

٦ـ وأخيرا اتجاه بريطانيا للقارة الأوروبية ، وتشابك مصالحها ، وتناقضها مع كثير من مصالح الكومنولث. وضعفها الاقتصادي الذي جعلها بحاجة ماسة إلى أمريكا. ففقدت زعامتها وقيادتها ، وبالتالي ضعفت أهمية الكومنولث وفقد فعاليته.

سابعا : جامعة الدول العربية

وهي منظمة إقليمية أنشئت عام **١٩٤٥م** من أجل مزيد من التعاون السياسي ، والاقتصادي ، والثقافي بين الدول العربية المستقلة. وأعضاؤها اثنان وعشرون دولة هي : المملكة العربية السعودية ، الكويت ، البحرين ، قطر ، عمان ، اليمن الشمالية ، اليمن الجنوبية ، الامارات العربية ، الأردن ، سوريا ، لبنان ، العراق ، مصر ، السودان ، الصومال ، جيبوتي ، ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب ، موريتانيا. بالإضافة إلى فلسطين. وكان مقرها القاهرة ، وانتقل إلى تونس عام **١٩٧٩م** بعد اعتراف مصر بالكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة.

كان عقد المسلمين قد انحل ، وتبعثر بعد الحرب العالمية الأولى (**١٩١٤ ـ ١٩١٨م**) وإلغاء الخلافة العثمانية رمز الوحدة الإسلامية ، وقسمت بلاد الإسلام ، ومنها العربية إلى مستعمرات حكمها الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون ، ولم يبق من يتمتع باستقلاله إلا : المملكة العربية السعودية ، واليمن الشمالية ، وأفغانستان.

وأخذت الاتجهات الوطنية والإقليمية تجد لها صدى بين شعوب العالم الإسلامي تحت شعارات : الاستقلال ، والحرية ، ومكافحة الاستعمار ، إلى جانب الاتجاهات الإسلامية التي لايمكن إغفالها.

وبدأ تقارب البلاد العربية على الصعيد الدبلوماسي بمعاهدة الإخاء والتحالف بين المملكة العربية السعودية والعراق عام **١٩٣٦م** ، وتنص المادة السابعة منها : « يتعاون الفريقان المتعاقدان الساميان على توحيد الثقافة الإسلامية والعربية ، والأساليب العسكرية في بلادهما ، بتبادل بعثات علمية وعسكرية ، للإطلاع على الأساليب المتبعة في المملكتين ، وتوحيد مايمكن منها ، والاستفادة من المعاهد السلمية والعسكرية والتدريب بها ..»(٤٥) وتركت المعاهدة الباب مفتوحا أمام الدول العربية ، فاشتركت فيها اليمن عام **١٩٣٧م**. كما عقدت معاهدة صداقة بين المملكة السعودية ومصر في عام **١٩٣٦م** في القاهرة. وأقامت هذه المعاهدة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين لأول مرة ، كما ألفت خطوة نحو تقارب البلاد العربية.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية (**١٩٣٩ - ١٩٤٥م**) برزت مشاريع تدعو لوحدة بعض الأقطار العربية قبل مشروع الجامعة العربية ومنها:

أ- مشروع سوريا الكبرى الذي نادى به الأمير عبد الله بن الحسين أمير شرق الأردن.

ب- مشروع الهلال الخصيب : (وحدة بلاد الشام والعراق) الذي نادى به نوري السعيد رئيس وزراء العراق عام **١٩٤٢م**.

وكانت بريطانيا قد واجهت أحلك الظروف في الحرب العالمية الثانية ، ووقفت وحدها أمام دول المحور بعد استسلام فرنسا لهتلر ، وقبل دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانبها. كما كانت ألمانيا تحاول استثارة العرب ضدها بإطلاق الوعود. فخشيت بريطانيا انفلات الأمر من يدها ، كما خشيت أن يتجه العرب إلى الاتجاهات الإسلامية ، وهم بحكم وضعهم ولغتهم من الممكن أن يسلم لهم العالم الإسلامي بالزعامة. هذا بالإضافة إلى أن بريطانيا كانت ترغب في إقامة منطقة نفوذ اقتصادية في الشرق الأوسط كله ، فرغبت بالتالي في تمهيد الطريق أمام تقارب العرب فيما يشبه الحلف أو التضامن يسهل عليها التعامل معهم ، من مركز

---

(٤٥) الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب - إصدار جريدة الأيام الدمشقية.

واحد ، كما كانت ترغب في انتزاع لبنان وسوريا من فرنسا ليخلو لها الجو(٤٦).

علاوة على أنها بتبنيها أماني العرب في الوحدة تحقق هدفا غاليا عند العرب طالما تمنوه وعملوا من أجله ، ويزيل ماعلق بنفوسهم من حقد على بريطانيا لموقفها من فلسطين وتهويدها ، وتبنيها للصهيونية. من أجل ذلك كله كان تصريح (إيدن) رئيس وزراء بريطانيا عام **١٩٤١م** في مجلس العموم البريطاني ، وجاء فيه :

« لهذه البلاد - بريطانيا(٤٧) - تقاليد طويلة من الصداقة مع العرب ، وهي صداقة قد أثبتتها الأعمال ، وليس الأقوال وحدها ، ولنا بين العرب عدد لايحصى ممن يرجون لنا الخير ، كما أن لهم هنا أصدقاء كثيرون ، وقد قلت منذ أيام في مجلس العموم أن حكومة جلالته تعطف كثيرا على أماني سوريا في الاستقلال ، وأود أن أكرر ذلك الآن ، ولكني سأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول : « إن العالم العربي قد خطا خطوات عظمية منذ التسوية التي تمت عقب الحرب الماضية. ويرجو كثير من مفكري العرب للشعوب العربية درجة من الوحدة أكثر من الدرجة التي يتمتعون بها في الحاضر ، وهم إذ يحاولون بلوغ هذه الوحدة ، يعتمدون على مساعدتنا. وهذا النداء الصادر عن أصدقائنا ، يجب ألا يبقى دون جواب. ويبدو لي أن من الطبيعي والعادل معا أن تقوى الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلاد العربية ، وكذا الروابط السياسية. وإن حكومة صاحب الجلالة من جانبها ستبذل مساعدتها التامة لكل خطوة يمليها اتفاق عام »(٤٨)».

وقد أعقب هذا التصريح جهود عربية لم تتعد نطاق الاستشارة أو المكاشفة والمداولة التي لم تتخذ أية صفة رسمية عملية(٤٩).

وجدد إيدن تصريحه عام **١٩٤٣م** « بعطف بريطانيا على أماني العرب في

---

(٤٦) طربين - الوحدة العربية ص ٢٠٠.

(٤٧) اتصفت السياسة الانجليزية بعمق التخطيط والبطء في التنفيذ ، والمرونة ، فهي سياسة ذكية تعرف كيف تستغل الأحداث لتحقق ماتريده ، وتحسن المراقبة ، والاستكشاف ، ثم تحسن الاستغلال والتوجيه ، فهي كما وصفها السياسي الفرنسي المشهور جول فري : « تعرف من أين تؤكل الكتف ». وسياستها هذه تركت أخاديد غائرة خطيرة في عالم الإسلام ، وقضاياه الصعبة الحل في : فلسطين ، وقطاني ، وأراكان ، وماليزيا ، والهند ، والخليج العربي ،والجنوب العربي ، وأريتريا ، والصومال ، والسودان ، ونيجيريا ، فما من قضية إسلامية إلا تجد بصمات السياسة الانجليزية عليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

(٤٨) التاريخ الدبلوماسي ص ١٥١،١٥٢ ، الوحدة العربية ص ١٩٨ عن : The Times 30 May ١٤٩١

(٤٩) الوحدة العربية ص ٢٢٦.

الاتحاد ، على أن تكون المبادرة من العرب أنفسهم ». وكانت ظروف التصريح الجديد تختلف عن ظروف سابقه : فدول المحور ابتدأت بالتراجع ، والحلفاء يتقلبون من نصر إلى نصر ، والصهيونية تكيد لفلسطين وتكشر عن أنيابها ، والفرنسيون يتشبثون بسوريا ولبنان ، والجو العربي لايخلو من سوء التفاهم(٥٠). فبادر النحاس باشا رئيس الوزراء المصري إلى الاتصال بزعماء العرب عام **١٩٤٤م** ، وتمت عدة لقاءات ومشاورات أسفرت عن مشروع وحدوي واسع في بروتوكول الاسكندرية (مؤتمر الاسكندرية) الذي جمع في **٧** تشرين الأول عام **١٩٤٤م** الدول العربية : مصر ، والمملكة العربية السعودية ، وسورية ، ولبنان ، والأردن ، واليمن ، والعراق.

ولكن المشروع الشبه اتحادي الذي أقره بروتوكول الاسكندرية اصطدم بالتحفظات فأسفر عن ميثاق من نوع المنتدى الدبلوماسي بروابط مرنة ، ورخوة ، وهو ميثاق جامعة الدول العربية(٥١). وقعت عليه الدول العربية في **٢٢** آذار عام **١٩٤٥م**. والواقع أن بعض التحفظات كان لابد منها عند بعض الدول ، وكمثال على ذلك :

من بين أهداف الجامعة العربية : «السعي لتوحيد الثقافة العربية وتوحيد التشريع بين الدول العربية». ولما كان أكثر البلاد العربية قد تمسك بالعلمانية ، فإن المملكة العربية السعودية بينت أن ظروفها ، ووجود البلاد المقدسة فيها ، يجعل لها وضعا خاصا ، فهي ستمتنع عن أي مبدأ في التعليم ، أو التشريع يخالف قواعد الدين الإسلامي وأصوله(٥٢). ولو أخلصت النيات لتبنت جميع الدول هذه النقطة واتجهوا إلى تحكيم الإسلام الذي هو القاسم المشترك بينهم.

وقد عبر عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة لمدة طويلة عن الميثاق بقوله : « يعتبر ميثاق الجامعة هو الحد الأدنى لما كان يمكن التوصل إليه آنذاك(٥٣) ».

والبت في أمورها معقد ، شاق طويل الأمد ، إذ يتم عرض المشروع ، ثم يناقش ، ويتخذ القرار ، ثم يصدق عليه من الدول الأعضاء كل على حدة ،

---

(٥٠) نفسه ص ٢٢٧.

(٥١) تاريخ عصرنا ص ٤٧٥.

(٥٢) نص الكتاب الذي قدمه الشيخ يوسف ياسين إلى دولة أحمد ماهر باشا رئيس اللجنة التحضيرية بتاريخ ١٩٤٥/١/٣م في مرفق رقم ٦ من محاضر اللجنة النوعية السياسية. ص ١٧-١٨.

(٥٣) ألمانيا والعالم العربي - ترجمة د. مصطفى ماهر ص ٣٦٢.

والقرارات غير ملزمة للأعضاء ولو كانت بالأغلبية. فالمادة السابعة : « مايقرره المجلس بالإجماع يكون ملزما لجميع الدول المشتركة في الجامعة ، ومايقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزما لمن يقبله(٥٤) ».

وأما أهداف الجامعة كما بينها الميثاق فهي :

١ـ توثيق الصلات بين الدول العربية ، وتنسيق خططها ، تحقيقا للتعاون بينها ، وصيانة لاستقلالها وسيادتها.

٢ـ توثيق التعاون بين البلاد العربية في الشئون الاقتصادية ، والمالية ، والثقافية ، والاجتماعية ، والصحية ، والعسكرية.

٣ـ تحقيق التعاون مع الهيئات الدولية التي تعمل لنشر السلام في العالم ، خاصة هيئة الأمم المتحدة وفروعها.

وأجهزة الجامعة هي :

١ـ مجلس الجامعة : ويتألف من ممثلي الدول العربية المشتركة ، وينعقد مرتين في العام بشكل عادي ، وينعقد بصفة استثنائية إذا دعت الحاجة إلى ذلك. ولكل دولة عضو صوت واحد ، وعدد من الممثلين.

٢ـ الأمانة العامة : وتتألف من أمين عام ، وأمناء مساعدين ، وعدد كبير من الموظفين. ويعين الأمين العام من قبل مجلس الجامعة بأكثرية ثلثي الأعضاء. ومهمته : دعوة مجلس الجامعة حين الحاجة ، والاشراف على اعداد مشروع الميزانية ، وتحديد نصيب كل دولة من نفقات الجامعة بعد موافقة مجلس الجامعة على ذلك.

٣ـ اللجان الخاصة : ومنها:

اللجنة السياسية ، واللجنة الاقتصادية والمالية ، واللجنة الاجتماعية ، واللجنة الثقافية ، واللجنة الصحية ، ولجنة التنسيق والجوازات.

هذا وقد قامت الجامعة بأنشطة رغم ضعف ميثاقها مثل :

١ـ لعبت دورا في معارك التخلص من الاستعمار في المغرب ، وتونس ، وليبيا ، والجزائر ، والجنوب العربي ،وذلك على مختلف الجبهات والمستويات سواء أكان ذلك بالعمل المنظم في الأمم المتحدة ، أو بالطرق الدبلوماسية بواسطة الأعضاء ، أو بالوسائل المادية ، أو عن طريق الدعاية.

٢ـ حصلت على شرعيتها العالمية ، فمنها وفد في الأمم المتحدة ، وهو عضو

(٥٤) نفسه ص ٣٦٨.

في منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) حيث أدخلت اللغة العربية لغة عالمية. وهي عضو بمنظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة. وعضو بمنظمة الصحة العالمية. ومنظمات أخرى مماثلة.

٣ـ كلفتها الأمم المتحدة بالوساطة وفض النزاع في بعض القضايا مثل : الصراع بين العراق والكويت.

٤ـ لها تمثيل دبلوماسي لدى بعض الدول منها الهند ، واسبانيا(٥٥).

٥ـ قامت بمشاريع توحيد نظم التعليم ، وبرامجه ، والتقريب بين القوانين ، واجراءات تنفيذها. والتخطيط المشترك في شئون المواصلات وشبكة الطرق. وبتوحيد الغرف التجارية والصناعية والزراعية. وبتنسيق سياسة البترول ، والمواصلات الجوية والبحرية ووسائل الإعلام. وبتوجيهات بشأن السوق العربية المشتركة ، وانجازاتها في هذه المجالات ضعيفة.

وأبرز مساهمتها في الأمم المتحدة ، وفي الكتلة الآسيوية الأفريقية ، وفي مجموعة ال ٧٧. كما قامت بتنظيم عقد مؤتمرات القمة العربية حيث عقد حتى عام **١٩٨٨م** خمسة عشر مؤتمرا. الأول في القاهرة عام **١٩٦٤م** ، والرابع عشر بعمان عام **١٩٨٧م**، والأخير في الجزائر (وكان طارئا) عام **١٩٨٨م** ، **١٤٠٨هـ**. ولاتزال تؤدي دورها رغم أنها تعاني من الإفلاس.

ثامنا : دول عدم الانحياز The Non Alignment Group

وعدم الانحياز Positive Neutralism يقصد به عدم الانحياز إلى إحدى الكتلتين اللتين تتزعمهما روسيا والولايات المتحدة ، والوقوف إلى جانب الحق والعدل. وأطلق عليه اسم : (الحياد الإيجابي) ، بمعنى أنه : موقف سياسي تتخذه الدول ابتعادا عن المشاركة في صراع المعسكرين ، ورفضا للاستسلام لأي منهما في الميادين السياسية ، والاقتصادية ، والعسكرية.

وقد بدأت فكرة عدم الانحياز في كولومبو (عاصمة سيلان) عندما عقد مؤتمر عام **١٩٥٤م** ضم : الهند ، وباكستان ، وأندونيسيا ، وبرمانيا ، وسيلان. حيث بحث المؤتمر تقرير موقف مشترك أمام الدول الكبرى الاستعمارية ، ودراسة قضية الهند الصينية ، ومحاولة إنشاء جبهة آسيوية محايدة.

وأعقب مؤتمر كولومبو توقيع المعاهدة التي أقامت منظمة حلف جنوب شرق آسيا عام **١٩٥٤م** ، التي ضمت الدول : تايلاند ، وماليزيا ،

(٥٥) انظر ألمانيا والعالم العربي ص ٣٩٤ـ٣٩٥.

وسنغافورة ،وأندونيسيا ، وسلطنة بروني ، والفلبين. وبعد توقيع هذه المعاهدة اجتمع أعضاء مؤتمر كولومبو الخمس في (بوغور) بالقرب من جاكارتا بأندونيسيا في العام نفسه وقرروا دعوة الدول الأفريقية والآسيوية للاجتماع معهم في باندونغ عام **١٩٥٥م**. ووجهوا الدعوة إلى ٢٤ بلدا ،بالإضافة إلى دول مؤتمر كولمبو الخمس. وهذه البلاد هي :

أـ البلاد العربية المستقلة : مصر ، وليبيا ، والعراق ، والأردن ، ولبنان ، وسوريا ، والمملكة العربية السعودية ، واليمن ، والسودان.

بـ البلاد الإسلامية المستقلة الأخرى في آسيا وهي :

تركيا ، وإيران ، وأفغانستان.

جـ من البلاد الأفريقية المستقلة :

الحبشة ، وساحل الذهب (غانا) ، وليبيريا ، واتحاد أفريقيا الوسطى (وهي البلد الوحيد الذي لم يحضر المؤتمر من الدول المدعوة إليه).

دـ من البلاد الآسيوية المستقلة :

كامبوتشيا (كمبوديا) ، ولاوس ، والفيتنام ، وتايلاند ، والفلبين ، ونيبال ، والصين الشعبية ، واليابان.

وانعقد مؤتمر باندونغ بالفعل عام **١٩٥٥م** ، وسط مظاهر الدعاية والشعارات ، حيث ضم ممثلين عن ٦٥٪ من سكان الأرض. وبرز فيه أسماء كبار قادة ماسمي بالحياد الإيجابي : نهرو رئيس الهند ، وأحمد سوكارنو الرئيس الأندونيسي ، وبروز تيتو الرئيس اليوغسلافي ، وشوان لاي الزعيم الصيني ، وجمال عبد الناصر الرئيس المصري.

وكان جدول أعمال المؤتمر غامضا للغاية ، كما كانت القضية معرفة ماستكون عليه المناقشات. وبعد جو من الخطابة صوت على ميثاق من عشر نقاط ذات طابع عام جدا ، ومرن للغاية(٥٦) ولانجد فيها إشارة صريحة إلى سياسة الحياد الإيجابي (عدم الانحياز) هي :

١ـ احترام حقوق الإنسان.

٢ـ احترام أهداف ومباديء شرعة الأمم المتحدة.

٣ـ احترام سيادة الدول وسلامتها القومية.

٤ـ مساواة الشعوب والأمم.

---

(٥٦) التاريخ الدبلوماسي ص ٤٠٩.

٥- عدم التدخل في شئون الدول الداخلية.
٦- تسوية الخلافات بالطرق السلمية.
٧- إعلاء شأن المصالح المشتركة والتعاون.
٨- شجب الاستعمار بجميع مظاهره.
٩- شجب التميز العنصري.
١٠- دعم حقوق الشعب العربي في فلسطين.

وعندما طالبت سيلان وتركيا والعراق شجب الاستعمار الروسي في أوروبا الشرقية ، قام نهرو بهجوم ، وطالب باشتراك البلاد الأفرو-آسيوية بقوة دولية ثالثة لتشجيع التعايش بين الشرق والغرب. واكتفى أخيرا بالاقتراح الغامض : شجب الاستعمار بجميع مظاهره ، وأما الحياد فلم يؤخذ به لأن أحد المباديء صيغ على الشكل التالي :

« احترام حقوق كل أمة بالدفاع عن نفسها فرديا وجماعيا ، طبقا لشرعة الأمم المتحدة(٥٧) » وفي هذا إقرار بحق الدول في الدخول في أحلاف عسكرية ثنائية أو جماعية.

ومن خلال هذه الدول تأسست عام **١٩٥٨م** منظمة التضامن الآسيوي الأفريقي ، واتخذت القاهرة مقرا لها.

وعقدت دول عدم الانحياز عددا من المؤتمرات بعد مؤتمر باندونغ كان عاشرها بزيمبابوي عام **١٩٨٦م**. وضمت دولا أخرى فبلغ عدد المنتمين إليها ١٠٦ دول ، ولكن الدول الغير منحازة فعلا لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، ولهذا ظلت أهداف هذه المنظمة ومبادؤها وشعاراتها نوعا من أضغاث الأحلام ، أو السراب.

بحيث أصبح لسان حال أقطابها اليوم :

« نحن نجتمع ،إذن نحن موجودون »(٥٨). ولم تؤثر على الأحلاف التي أقامتها الولايات المتحدة وروسيا بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، في آسيا أو في أفريقيا(٥٩).

تاسعا : منظمة الوحدة الأفريقية :

أخذت الدول الأفريقية التي استقلت تتنبه إلى أهمية المسائل الاقتصادية ، وإلى

---

(٥٧) نفسه ص ٤١٠.
(٥٨) الموسوعة ص ٥٩.
(٥٩) التاريخ الدبلوماسي ص ٤١٠.

ضرورة معالجتها ، فظهرت محاولات في هذا الميدان.

وبدأ التفكير بتكوين منظمة في مؤتمر باندونغ عام **١٩٥٥م** ، ثم في اجتماعات القاهرة عام **١٩٥٧م** ، وكونكري عام **١٩٦٠م**. فتكونت **مجموعة دول كازبلانكا** (الدار البيضاء) عام **١٩٦١م** من دول : المغرب ، وجبهة التحرير الجزائرية ، وغانا ، ومالي. **ومجموعة دول برازفيل** من اثنتي عشرة دولة ناطقة بالفرنسية في أفريقية ، حيث وقعت اتفاقا في (تناناريف) (عاصمة مالاجاش) عام **١٩٦١م** ، ودعي بميثاق : (**اتحاد أفريقية ـ مالاجاش**). وكذلك تم **اجتماع مونروفيا** حضرته دول أفريقية السوداء ، وأعقبه مؤتمر لاجوس (عاصمة نيجيريا) عام **١٩٦٢م** بهدف إقامة تعاون بين الشعوب الأفريقية السوداء(٦٠).

كل هذه الاتفاقيات والمؤتمرات كانت خطوات نحو انعقاد مؤتمر كبير في **أديس أبابا** (عاصمة أثيوبيا) عام **١٩٦٣م** بحضور ثلاثين وزير خارجية أفريقي من الدول المستقلة. حيث أنهى هذا المؤتمر ميثاق كازبلانكا ، وميثاق مونروفيا ، واقترح إنشاء منظمة الوحدة الأفريقية.

وفي العام نفسه عقدت بأديس أبابا أول قمة أفريقية ، وتم إعلان إنشاء منظمة الوحدة الأفريقيّة ، متعهدة بالتمسك بأهداف ومباديء الأمم المتحدة ، والاتجاهات الدولية السلمية. واتخذت أديس أبابا مركزا لها.

وتبع ذلك عدة مؤتمرات منها : المؤتمر الثاني في القاهرة عام **١٩٦٤م** ، والثالث في أكرا عام **١٩٦٥م**. وهكذا أخذت أديس أبابا تلعب دورا في السياسة الأفريقية لصالح أثيوبيا التي ظهرت من خلال هذه المنظمة بطلة الوحدة الأفريقية ، مما أثر كثيرا على قضايا المسلمين في قارة أفريقيا ، وخاصة في أريتريا وأوجادين ، والحبشة.

هذا وقد اهتمت قمة أديس أبابا عام **١٩٨٠م** بالمشكلات الاقتصادية الأفريقية ، دون أن تتوصل إلى نتائج عملية.

وتتلخص أغراض هذه المنظمة في :

ـ العمل على تعاون الشعوب الأفريقية في شتى الميادين السياسية ، والاقتصادية ، والفنية ، والاجتماعية.

ـ والسعي إلى تحرير بقية الأجزاء من الاستعمار ، ومجابهة الاستعمار الجديد.

---

(٦٠) العمري ـ الأفريقيون والعرب ص ٢١٠.

- وتسوية مشكلات القارة الأفريقية كمنازعات الحدود.
- ومكافحة التمييز العنصري في القارة الأفريقية.

وهي أغراض كما تلاحظ عامة وغير محددة. كقرارات مؤتمراتها.

وأما أجهزة المنظمة فهي :

١- الجمعية العمومية : وهي مجلس رؤساء الدول الذي يعقد اجتماعا سنويا.

٢- مجلس وزراء الخارجية : ويجتمع مرتين في العام.

٣- الأمانة العامة : ومقرها أديس أبابا.

٤- لجان متنوعة منها : لجنة الوساطة والتحكيم ، واللجان المتخصصة العليا الاقتصادية(٦١).

عاشرا : منظمة أوبك - الدول المصدرة للنفط O.P.E.C

وهي تنظيم رسمي لمجموعة من الدول المنتجة والمصدرة للبترول ، بهدف تنسيق ، وتوحيد ، وتطوير السياسات النفطية لهذه الدول بالصورة التي تكفل المحافظة على مصالحها بالتفاوض مع شركات البترول العالمية.

فقد رأت الدول المنتجة للنفط والمصدرة له أن الشركات الغربية التي تستخرج النفط من أراضيها تستغلها ، وتتحكم بأسعاره كما تشاء.

فقامت بإنشاء هذه المنظمة للحد من استغلال الشركات ، وتحديد أسعار النفط لخدمة هذه الدول الاقتصادية والتنموية.

وقد تأسست هذه المنظمة في بغداد عام **١٩٦٠م** من الدول الخمس التالية : الكويت ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، وإيران ، وفنزويلا. وتركت المجال مفتوحا لانضمام أي دولة منتجة ومصدرة للبترول بشرط أن يوافق على انضمامها ثلاثة أرباع الدول كاملة العضوية من بينها الخمسة المؤسسة للمنظمة. فتوالى انضمام الدول الأعضاء ، فأصبح عددها ثلاثة عشرة دولة. وهي بالإضافة إلى الخمسة :

الجزائر ، والاكوادور ، والغابون ، وأندونيسيا ، وليبيا ، ونيجيريا ، وقطر ، والإمارات العربية.

وأنشأت المنظمة الصندوق الخاص بها. وكان مقرها في جنيف ، ثم نقل إلى فينا(٦٢).

---

(٦١) الموسوعة ص ٦٨-٦٩.

(٦٢) الموسوعة ص ٦٣.

ويمكن تلخيص أهدافها كما أعلنتها في :

١ـ تنسيق وتوحيد وتطوير السياسات البترولية للدول الأعضاء ، وتحديد السبل لحماية مصالحهم منفردين أو مجتمعين.

٢ـ المشاركة الفعالة في وضع السياسات التسعيرية التي تضمن تحقيق استقرار الأسعار في الأسواق العالمية وتجنب التقلبات الضارة في إيرادات البترول.

٣ـ المشاركة الفعالة في وضع السياسات الانتاجية التي تضمن مصالح الدول المنتجة والمستهلكة.

٤ـ تحقيق عائد عادل على الاستثمار في الموارد الناضبة.

كما عملت على امتلاك الدولة المنتجة للبترول لأسهم شركات البترول عن طريق مبدأ المشاركة الذي طرحته المملكة العربية السعودية بديلا لمبدأ التأميم. وهذا المبدأ يقوم على مساهمة الدولة المنتجة للبترول بجزء من الشركة البترولي ، وتمتد المشاركة لتشمل جميع مراحل الانتاج البترولي.

فأصبحت المملكة العربية السعودية تملك جميع الاسهم عام **١٩٨٠م** عن طريق هذا المبدأ(٦٣).

هذا وقد نجحت منظمة أوبك ، وأفادت الدول المشتركة ، وكانت بمثابة القذى في أعين الأوروبيين والروس والأمريكان ، فاستُهدفت منذ تأسيسها ، واشتد الكيد لها. وكانت أعمالها ، وقراراتها ، ومشاريعها عرضة للمؤامرات والمناورات والدسائس. واستخدم الغرب والشرق مع أعضائها شتى صنوف المغريات ، وأقسى أنواع التهديدات ، بقصد فصم عرى وحدتها(٦٤). وبذلت المملكة العربية السعودية وبعض الدول المشتركة الأخرى جهودا جبارة للإبقاء عليها ، رغم الظروف المرة التي مرت بها هذه المنظمة ، والتي اشتدت منذ عام **١٩٧٥م** إلى اليوم ، ورغم عمق تناقضات أعضائها.

وقد أنشأت بعض الأقطار العربية : **(أوابك)** منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول. بهدف تنسيق السياسة البترولية العربية. ووقع على اتفاقيتها كل من : المملكة العربية السعودية ، والكويت ، وليبيا. عام **١٩٦٨م** واتخذت الكويت مقرا لها. ثم ضمت بعد ذلك : الإمارات العربية ، والبحرين ، والجزائر ،

---

(٦٣) سيد فتحي أحمد الخولي ـ اقتصاديات البترول ـ.

(٦٤) الموسوعة ص ٥٩ وانظر هذا الكتاب ص٢٤ـ٢٥.

والمغرب ، وقطر ، ومصر ، وسوريا(٦٥).

ومن هذا العرض السريع للتكتلات الدولية يتضح تبعثر جهد المسلمين ، وخفوت صوت الإسلام ومنهاجه فيها ، ولما كان الإسلام يفرض وجوده ، ويجمع أفراده ، فقد تحركت الغيرة في بعض بلدانه ودوله وقادته فقامت جهود مشكورة في سبيل تجميع المسلمين وطاقاتهم. فظهر للوجود : منظمة المؤتمر الإسلامي ، ومجلس التعاون لدول الخليج العربية(٦٦).

---

(٦٥) الموسوعة ص ٦٣.

(٦٦) انظر ص٢٧٣ من الكتاب.